



سلسلة روايات الجيب

حب بعد عذاب

A-115

باربرا كارتلاند

BARBARA CARTLAND

حب بعد عذاب

إذا كان هناك رجل تعرفه اللايدي ليندا مارلو فهو الدوق أوف بنينغتون، الرجل الذي تكرهه، ومع هذا فقد كان هو الذي انقذها من الغرق مما أثار بذلك عاصفة من الثرثرة جعلتهما يقعان في فخ الزواج... هذا الزواج الذي كان والد ليندا، الدوق أوف مارلو يعلم بأنه.. سينقذه من الفقر والعوز والاضطرار إلى إغلاق قصره. ولكن الرجل الذي تزوجته ليندا كان مختلفا تماما عن ذلك الرجل ذي السمعة السيئة، وعندما جاء دورها لتنقذ حياة الدوق، علمت بأنه الرجل الوحيد الجدير بأن تتزوجه.

الفصل الأول

خرجت اللايدي ليندا من الباب الأمامي إلى الحديقة، بينما كان قلبها مليئاً بالبهجة لعودتها إلى الوطن والبيت. كان الفصل ربيعاً، وبراعم الأزهار تتفتح.

وكانت غيبتها قد استغرقت اكثر من سنة، وكانت ترى أن ليس هناك ما هو أروع من انكلترا في شهر أيار (مايو)، وكانت في الخارج تنهي آخر سنة من دراستها. لقد أحبت الدراسة وزيارة المتاحف الرائعة والتي كانت موجودة في فرنسا بكثرة.

ولكن انكلترا كانت دائماً في قلبها، بغاباتها، وبحيراتها وأنهارها، وقبل كل شيء، بيتها، وكان قصر مارلو بالغ القدم، وكانت تعلم جيداً بأن القصر بحاجة إلى الكثير من الاصلاحات نظراً لأن والدها الدوق لم يكن غنياً، ولكن، بالنسبة إليها، كان كل حجر فيه، غالياً عزيزاً على قلبها. حتى سقوفه الرطبة وصرير الألواح الخشبية الأرضية حين تسير عليها، لم تستطع أن تضعف من حبها له.

واستبد بها الحنين والوحشة إلى أمها وهي تجتاز المرج الأخضر لتسير تحت أشجار السنديان.

كانت تعلم أن كل شيء لم يعد كما كان عليه قبل أن تموت، وكان يجب ان تقدم اللايدي ليندا إلى الملكة في قصر باكنغهام العام الماضي، وذلك توطئة للاحتفال

بدخولها المجتمع، وكانت في ذلك الحين على وشك اتمامها الثامنة عشرة من عمرها، وكانت بصفتها ابنة دوق، ذات اهمية بين الفتيات اللاتي يدخلن المجتمع لأول مرة.

ولكن، عندما توفيت والدتها الدوقة مارلو، فضلت البقاء في المدرسة رغم انها كانت اكبر سناً من بقية الفتيات.

فقد كان هناك الكثير مما تريد ان تطلع عليه، وتتعلمه.

وهكذا تابعت دراستها مع الاساتذة المسنين، كما انفقت الكثير من الوقت بين المكتبات المختلفة في باريس، والتي كانت متوفرة لطلاب الدراسات العليا.

وعندما كانت زميلاتها يحذرنها بقولهن: «انك ستكونين من التفوق العلمي بحيث سيخاف منك الرجال.»

كانت ترد عليهن قائلة: «ما سيخيفني اكثر، هو ان يجلبوا هم الملل إلى نفسي، ذلك انهم كما تخبرونني دوماً، ليس لهم أي اهتمامات خارجة عن الرياضة.» فكانت الفتيات يضحكن منها.

وكانت صديقات ليندا الانكليزيات يقلن: «في الخريف، يذهبون أولاً إلى اسكوتلندا لصيد طير الطيهوج؛ ثم يعودون إلى موطنهم لصيد الحجل والتدرج، وبعد ذلك يذهبون لصيد الطرائد في البراري إلا إذا كان الجليد يغطي الأرض، وبعد ذلك، مع مطلع السنة الجديدة، يبدأ سباق الخيل الذي يتتابع اسبوعياً.»

وكانت اللايدي ليندا تحب الفروسية وتزاولها حتى وهي في المدرسة.

وفي نفس الوقت، كانت تحب قراءة الكتب التي تتحدث عن البلاد الأخرى في العالم.

لقد درست عاداتها وتقاليدها، كما تعلمت لغاتها من صديقاتها، فقد كانت تحلم دوماً بأنها إذا ساعدها الحظ على السفر إلى بلاد أجنبية سيكون في امكانها التحدث إلى سكانها بلغتهم، وكانوا يقولون لها: «ليس من المحتمل أبداً أن تسافري إلى أي مكان غريب رائع.»

ولكنها كانت تشعر في اعماقها أنها يوماً ما سيكون في امكانها القيام بذلك.

ذلك ان تقاليد البلاد التي قرأت عنها، قد انطبعت في نفسها بمثل الوضوح المطبوعة فيه تقاليد بلادها. كانت قد وصلت عائدة من فرنسا في وقت متأخر من الليلة الماضية ووجدت كما توقعت، أن أباها يقيم حفلة منزلية، وكان الخدم قد اخبروها أنه قد أقيم سباق القفز فوق الحواجز أثناء ذلك النهار، وكان عدد كبير من المتسابقين يبيتون في القصر، وقد اعطتها مديرة المنزل السيدة ميدوز والتي كانت تحبها منذ كانت طفلة، قائمة باسماء الضيوف، فرأت أنها تعرف اكثر الضيوف الموجودين، فقد كانت منذ طفولتها، تسمع أباها يتحدث عنهم إذ كانوا من مالكي.

وكانت تتذكر أسماء بعض الشبان الذين كانوا يشتركون في تلك المسابقات التي كان يقيمها والدها

على الدوام، وكانت معجبة بهم، ولكن بما أنها كانت حديثة السن، فلم يكن بإمكانها سوى اختلاس النظر إليهم من خلال درابزين السلالم أثناء الولائم الرسمية، وكانوا احياناً يتحدثون معها أثناء حفلات سباق الخيل، ولكنهم كانوا يعتبرونها اصغر من ان تخرج معهم للنزهات الصباحية على ظهور الجياد، وكان هذا يغيظها جداً.

وكانت أمها تقول لها: «وبعد حفلة تقديمك إلى المجتمع، ستسنح لك فرصة الاجتماع بالكثير من الناس. وأظن من الخطأ الشنيع أن تجلس فتيات في الخامسة أو السادسة عشرة، وهن مازلن على مقاعد الدراسة، إلى اناس يكبرونهن سناً.»

وكان على ليندا أن ترضى بهذا. والآن، وهي تمعن النظر في القائمة التي تضم اسماء الضيوف، رأت أسماً لفت نظرها اكثر من غيره من الاسماء.

فقالت بصوت مرتفع: «إني أرى اسم الدوق أوف باكينغتون هنا؟»

فأجابت السيدة ميدوز: «آه، نعم، فقد كان سيادة والدك مسروراً لقدومه واشتراكه في السباق.»

فسألت ليندا: «وهل فاز؟»

«كما هو متوقع منه، يا سيدتي، فقد فاز، ولكن كثيرين قالوا ان هذا ليس عدلاً حيث أن لديه افضل الجياد، وبالتالي ليس له أن يسابقهم.» وكانت ليندا تستمع إليها، ذلك أنها كانت تفكر في ما كانت إحدى صديقاتها قد اخبرتها عن هذا الدوق، وكانت صديقتها

أليس دالتون تلك، هي إبنة امرأة من جميلات لندن، وقد ادركت ليندا أن اللايدي دالتون لم يكن لديها وقت لابنتها التي كانت تدانيها جمالاً تقريباً، وكانت تفضل عليها ابنها، وللتخلص منها، ارسلتها بعيداً إلى تلك المدرسة في فرنسا حيث كانت ليندا تتعلم، فقد كانت الفتاة ذات السادسة عشرة، من النضج إلى حد كان ضد مصلحتها حتماً.

وحيث أن والدتها اللايدي دالتون بقيت مسيطرة على رتبة الجمال في مجتمعات لندن لعدة سنوات، لم يكن في نيتها أن تتخلى عن تلك الرتبة، وعندما اعترفت ذات يوم، مكرهة، بأنها في الثلاثين من عمرها، رأت من نظرات الثرثارين إلى ابنتها، بأنهم لم يصدقوها. وهكذا كان على ابنتها أليس أن ترسل إلى فرنسا، لقد اخبرتها أمها ان عليها أن تتدبر أمر مكوثها خلال الإجازات المدرسية، مع اصدقائها قدر الامكان.

وكانت ليندا تشعر بالأسى لأجل أليس، وهي تفكر في مدى حب والديها هي لها. ولهذا حاولت أن تجذب اهتمام أليس إلى بعض اهتماماتها هي، ولكن ذلك كان أمراً صعباً لأن أليس كانت تريد أن تتحدث عن أمها، وكان ذلك يجرها إلى الحديث عن الرجال الذين يلاحقونها، وكان من بينهم ذلك الرجل البالغ الوسامة، والأهمية الاجتماعية، الدوق أوف باكينغتون.

وأخذت ليندا تفكر في مبلغ الحب الذي كان يربط بين والديها، وكان من غير الممكن ان تتصور أياً منهما يولي

اهتماماً ما، إذا كان هذا التعبير صائباً، إلى أي شخص آخر.

كانت ليندا في بيتها منذ عام، قبل وفاة امها مباشرة.

وكان ابوها قد اقام سباقاً للخيل في قصر مارلو وكان الدوق من المتسابقين.

ولم تستطع ليندا الا ان تنظر اليه وقد تملكها الفضول وهي تتذكر كل ما سمعته عنه.

فكرت ليندا: «مسكينة أليس.» فقد كانت تعلم انها هي الأخرى كانت تعاني على يدي الدوق المنتصر.

وفي تلك الزيارة، لم تتعرف ليندا إليه.

فقد كانت أمها تحتجزها في غرفة الدرس بحزم، ولكنها أخذت تختلس النظر إلى الضيوف وهم يتناولون عشاءهم، وعندما أخذوا يمتطون جيادهم في ا لمرج، أخذت تتفرج عليهم من النوافذ، ولكنها لم تتحدث مع أي منهم، وتحدثت إلى نفسها بأنها ستتعرف الآن إلى ا لدوق، وتمنت لو تستطيع إخباره بما يسببه لها سلوكه من رعب ولأليس دالتون من ألم، فقد تعلقت هذه بليندا وهي على وشك أن تترك المدرسة، قائلة: «انك عائدة إلى انكلترا، ولكن أمي تقول إن عليّ أن أبقى هنا لأنه لم يدعني أحد لقضاء العطلة في بيتهم، ان أمي لا تريد أن تراني، أو بالأحرى لا تريد أن يراني الدوق أو غيره من اصدقائها أو حتى أن ينتبهوا إلى انني موجودة في هذه الحياة.»

وانفجرت باكية وهي تتابع قائلة: «ما الذي سيحدث... السنة القادمة عندما يكون علي أن اقدم إلى الملكة؟»

فأجابت ليندا مواسية: «انني واثقة من أن أمك عندذاك، ستقبل بالوضع.»

«إن السبب هو الدوق، إنني واثقة من أن هذا كله هو بسبب الدوق، ذلك لأنها تخاف من أن يعلم أنها ليست صغيرة السن كما تدعي.»

فسألتها ليندا: «وكم يبلغ من السن؟»

فأجابت: «انه في الثامنة والعشرين. وإذا كنت أنا قد ولدت سنة ١٨٥٢ كما يقول أبي، فهذا يعني أن أمي في الخامسة والثلاثين على الأقل.»

وقد فكرت ليندا، عند ذلك، ان ليس منطقياً بالنسبة إلى اللايدي دالتون أن تبقى على ادعائها الشباب مدة طويلة.

وفي نفس الوقت، كانت كل الفتيات قد عدن إلى بيوتهن وآبائهن، ولكن كان على أليس أن تبقى في المدرسة حيث لم يكن سوى معلمة عجوز بقيت معها، وقالت لها ليندا: «ساخبرك بما سافعله. سأسأل أبي ان كان بإمكانك ان تأتي لقضاء العطلة عندنا، ولكنني سأرى أولاً ان كان يريد ان يأخذني إلى لندن لتقديمي إلى الملكة.»

وسكتت قليلاً، ثم عادت تقول: «ان الأمر لن يستغرق سوى أيام امضيها في منزل احد الأقرباء عندما أذهب إلى قصر الملكة، وبعد ذلك أنا واثقة من أنه سيوافق على مكوثك معنا عندما نرجع إلى الريف.»

فقالت أليس: «ما أجمل هذا، أرجوك ياليندا، حاولي ان تأخذيني إليك.»

فقالت ليندا: «سأفعل ذلك طبعاً، فلا تحزني.»

فقالت أليس بتعاسة: «وكيف لا أكون كذلك، وأنا أرى أمي لا تريدني، وأبي لا يهمه شيء سوى تعليم الفتيان الرماية؟ فهو لا يهتم بأي من الأشياء التي تهمني.»

ولم تجد ليندا امامها شيئاً تقوله. وهكذا قبلت أليس وهي تعدها بأن تكتب إليها حالما تصل إلى انكلترا، وهي الآن مصممة على التحدث إلى أبيها في هذا الأمر حالما تنتهي هذه الحفلة المنزلية. لقد كان قد جاء اليها بعد أن دخلت غرفتها وهو يقول: «إني آسف يا عزيزتي لأنك وصلت متأخرة عن حفلة السباق هذه.»

فقالت: «لم استطع المجيء قبل الآن يا أبي، فلدي الكثير من المعارف في فرنسا كان عليّ أن أودعهم واشكرهم لإكرامهم لي ولطفهم معي.»

فأخذ أبوها ينظر إليها مستفهماً، بينما كانت تتابع: «لا اعني بهذا أنني كنت منخرطة في المجتمعات الفرنسية، إنما كنت اتعلم وألتمس العون من عدد من كبار الأساتذة البالغي الذكاء.»

ثم ابتسمت وهي تتابع: «وهكذا كان عليّ أن اشكرهم للطفهم تجاه فتاة انكليزية تلقي الكثير من الاسئلة.»

فقال الدوق ضاحكاً: «لقد عدت إلى البيت، على الأقل، وأنا جد مسرور بذلك، يا ابنتي الغالية.»

وانحنى يقبل رأسها، ثم عاد إلى ضيوفه.

* * *

حيث أن السفر كان متعباً، فقد تأخرت ليندا في النوم رغم انها كانت قررت الخروج في نزهة على ظهر جوادها قبل الإفطار.

وكانت السيدة ميدوز قد وضعت صينية الافطار إلى جانب سريرها، وعندما استيقظت، فكرت في أن من الخطأ أن تذهب للتنزه على ظهر الجواد، وحدها، فقد شعر أبوها بالإستياء منها، وبدلاً من ذلك، ستخرج مع الضيوف بعد الغداء، وكان من المعتاد أن تذهب النساء مع الضيوف، في حفلات قصر مارلو، إلى التنزه سيراً أيام الآحاد إذا شئن ذلك، ولكن صبيحة الآحاد اعتاد الرجال الذهاب للنزهة على ظهور الخيل، حيث يصعدون إلى القلعة والتي تقوم على مرتفع خلف القصر. ومن هناك، كان بإمكانهم رؤية أروع المناظر، فقد كانوا يشرفون، كما اعتاد الدوق أن يقول مزهواً، على ثلاث مقاطعات. وكانت هذه طريقة ممتعة في الاحتفاء بضيوفه، ثم يعودوا بعد ذلك، إلى القصر لتناول الشاي. وكانت النساء يذهبن للراحة دوماً قبل العشاء، وكانت هذه أشياء معتادة. كانت ليندا تحفظ هذا البرنامج عن ظهر قلب، وعلى كل حال، فقد كان دورها في ذلك، فيما مضى، لا يكاد يذكر، ولكنها تعلم الآن أنها ستأخذ مكان أمها. التوى قلبها ألماً وهي تفكر في مقدار الوحشة التي ستشعر بها لفقدانها أمها، كل غرفة،

كل قطعة من الأثاث، وكل صورة أو تحفة، كانت تذكرها بمبلغ السعادة التي كانت تحفّ بهم منذ طفولتها.

وكانت قد تملكت والدها الدوق خيبة أمل مريرة عندما علم أن زوجته لم يعد بإمكانها الإنجاب بعد ولادة ليندا، ولكنه أصبح مولعاً بابنته تلك إلى حد لم يعد يهمه ألاّ يكون له وريث يحمل اللقب، فقد بقي القصر للأسرة مدة خمسمائة سنة، وكان الدوق يحلم على الدوام أنه يوماً ما، سيكون في إمكانه ان يجري به الاصلاحات اللازمة، ويعيد الخندق الذي يحيط به، والذي جف على مر القرون ونبتت فيه الاعشاب، يعيده مليئاً بالمياه كعهده إبان عنفوانه، كان يريد أن يكون منزله، كما كان مرة، واحداً من أعظم وأروع القصور في انكلترا.

سارت ليندا تحت اشجار السنديان ثم اجتازت قطعة من الأرض إلى حيث كان النهر، والذي كان يفصل المروج عن الغابات. كانت الغابات هي التي تستأثر بالمزيد من حبها، تلك الثلاثة آلاف فدان التي يملكها أبوها، في الوقت الذي كانت فيه طفلة، وكانت أمها تقرأ لها الحكايات الخرافية، كانت واثقة من وجود اقزام صغيرة الحجم جداً تحت الأشجار، وفراشات رائعة تتنقل بين الأزهار في الربيع، بينما عروس البحر تكمن تحت مياه البحيرة الهادئة في الغابة، فقد كانت الحكايات تلك التي كانت تحكيها لها أمها تبدو لها حقيقية تماماً.

لقد عاد كل هذا إلى ذاكرتها منذ اللحظة التي سارت

فيها تحت فروع اشجار البلوط والدردار، وهكذا وجدت نفسها تسرع إلى أن وصلت إلى الجسر الذي يمتد فوق النهر، فقد كانت في شوق بالغ للوصول إلى الغابة التي كانت تعني لها الكثير، ذلك انها كانت تشعر بأنها هي أيضاً كانت تنتظر عودتها، ولكنها ما لبثت ان توقفت عند وصولها إلى الجسر. كان والدها قد أخبرها في إحدى رسائله ان الأمطار التي كانت غزيرة جداً في شهر نيسان (ابريل)، قد رفعت من مستوى مياه النهر، وكان النهر، عادة ضيقاً، بينما الجسر يعلو فوق الماء إلى درجة ملحوظة، اما الآن فهي تراه يكاد يكون في مستوى المياه التي كانت تفيض فوق جوانبه، وعلى كل حال، لم يكن هناك ما يمكن أن يحبط عزمها عن الوصول إلى حيث غابة الحكايات الخرافية تلك، ولم يكن للجسر حاجز على الجانبين فتتمسك به وحيث انها كانت تعلم ان أرضه الخشبية لا بد ان تكون زلقة، فقد سارت فوقها بحذر.

وعندما أخذت تسير فوقه خطوة بعد أخرى، شعرت بالخشب تحت قدميها يحدث صريراً، وكانت قد وصلت إلى منتصف الجسر عندما سمعت صوت وقع حوافر حصان، ثم صوت رجل خلفها يصرخ بها قائلاً: «حذار، فالجسر غير آمن.»

أجفلت ليندا واستدارت تنظر حولها لترى من صاحب الصوت ذاك. وما أن فعلت ذلك، حتى اهتز الجسر فانزلقت من فوقه لتسقط في النهر.

اخذت تكافح في سبيل الخلاص إذ كانت تدرك أن

مياه النهر كانت عميقة جداً، ثم شعرت بنفسها تغرق، ولكنها بقيت تكافح مذعورة بينما اطبقت فوقها المياه.

ولم تكن قد تعلمت السباحة لأن أباها كان يعتقد أن هذا لا يليق بالشابات.

كانت واثقة من أنها ستغرق إذا لم يأتِ من ينقذها، وأخذت تشهق محاولة التنفس مرة بعد أخرى وهي تشعر بأنها تكاد تختنق، وإذا بيد تمسك بها ثم تجذبها إلى فوق سطح الماء، وسرعان ما وجدت نفسها تجر، وهي تتخبط وتشهق، إلى جانب النهر، لترفع بعد ذلك، وتوضع على الحشائش.

كانت على وشك الاختناق من كثرة المياه التي ابتلعتها والتي منعتها من التنفس، وهكذا لم تستطع ان تمسح عينيها إلا بعد مضي بعض الوقت، حيث أخذت تقوم بذلك بقفا يديها، وإذا بشخص يضع منديلاً مبتلاً في إحدى يديها، واخيراً، فتحت عينيها، كان هناك رجل واقف فوق رأسها يماثلها بللاً، بينما حصانه خلفه يقضم الحشائش. ومضت لحظات أدركت بعدها انه سبق لها أن رأت هذا الرجل من قبل، وكان في الواقع، الدوق أوف باكينغتون. سألها: «ما هذه الحماقة التي جعلتك تعبرين النهر على هذا الجسر؟ انه ليس زلقاً فقط بل معطوباً أيضاً.»

«لم... لم اكن اعلم... أنه معطوب، إنني.. اشكرك... اشكرك لإنقاذك... لي.»

أجاب: «لقد كلفني ذلك بذلة جيدة.» وحاول أن ينفض

بعض الماء من زوايا سترة الركوب التي كان يرتديها، ولكنه ما لبث ان كف عن ذلك ثم خلع السترة وألقاها على الأرض.

قال: «إن افضل ما بإمكاننا عمله هو العودة إلى القصر بأسرع وقت، وتغيير ثيابنا.»

كان يتكلم دون مبالاة، وكأنه كان يفكر في نفسه فقط دون ليندا، ثم قال بعد شيء من التفكير: «اظنك تسكنين في القصر.»

فقالت ببرود: «انه بيتي.»

وكانت في هذه الأثناء قد استطاعت الجلوس، مكتشفة انها مبتلة تماماً.

كان شعرها مبتلاً بينما قدماها حافيتين وقد سقط حذاؤها في الماء.

قال: «اظنني الآن قد عرفت من أنت، انك ابنة مضيفي، لقد كان اخبرني انك وصلت الليلة الماضية من السفر.»

أجابت: «هذا صحيح وقد تأخرت عن مشاهدة السباق.»

وأثناء كلامها، كانت قد نهضت واقفة، وكما لو أن الدوق انتبه إلى أنها حافية القدمين، فقال: «الأفضل أن تمتطي أنت ظهر الحصان بينما أمشي أنا.»

امسك باللجام بعدما جلست على الحصان، وقاده نحو القصر.

فقالت له تذكره: «لقد تركت.. سترتك على الأرض.»

فأجاب: «سأرسل خادمي لإحضارها.»

وكان يتكلم بلهجة خشنة ادركت ليندا منها أنه كان في غاية الضيق لاضطراره إلى انقاذها ما جعله يبتل بهذا الشكل، واشعرها هذا بشيء من الإذلال بالإضافة إلى خجلها من منظرها المزري.

وتساءلت بينها وبين نفسها، عما كان سيدريها بأن الجسر كان معطوباً، فقد كرهت ان يظن بها الدوق الحماقة إذ تسير عليه وهو بهذا الشكل، فلطالما سارت عليه في الماضي. في الواقع، لقد اعتادت اجتياز الجسر إلى الغابة في حالات كان فيها الجسر مغطى بالثلج والجليد، وحيث أن أباها كان يعلم مقدار حبها للغابة تلك، فقد ظنت انه لا بد قد اهتم باصلاح الجسر... ودفعها الفضول إلى سؤال الدوق: «كيف علمت بأن الجسر كان معطوباً؟»

فأجاب: «عند مرورنا من هنا أمس، في طريقنا إلى حلبة السباق، لاحظت ان المياه تفيض عليه إلى الضفة الأخرى، فنبهت أباك إلى ذلك.»

وعلمت ليندا من الطريقة التي كان يتحدث فيها إلى أنه يعتبرها عديمة الملاحظة. فقد كان عليها أن ترى ان كان صالحاً للمرور عليه قبل أن تقوم بذلك.

واعترفت فيما بينها وبين نفسها انها كانت من شدة الشوق إلى الوصول إلى الغابة بحيث غفلت عن ذلك، فقد كانت تحلم بالحكايات التي ستحكيها لنفسها عندما تصبح تحت تلك الأشجار. ولم يخطر لها قط انها قد تجد صعوبة في ذلك، وكان الدوق يسير بسرعة وكأنه يريد

بذلك أن يعوض عن الضيق الذي يشعر به في ثيابه المبتلة هذه.

مضت عليهما قرابة ربع الساعة قبل ان يصلا إلى المرج، ثم اجتازا جسراً يمتد فوق ما كان يوماً ما خندقاً، ومن ثم وصلا إلى فناء القصر، رأت ليندا ان الضيوف الذين كانوا في النزهة، وهم حوالي الستة رجال وامرأتين، قد عادوا لتوهم، وكانوا يترجلون عن جيادهم أمام الباب الأمامي.

وعندما وصل الدوق يقود الحصان بينما ليندا تجلس على سرجه، اخذوا يحدقون بهذا المنظر ذاهلين، ثم هتف احد الرجال: «ما هذا يا باك؟ ما هذا الذي فعلته؟»

فأجاب الدوق: «كنت انقذ آنسة من محنة، كانت قد سقطت في النهر، فرأيت نفسي مرغماً على تمثيل دور الفارس الشهم وذلك بإلقاء نفسي في الماء وإنقاذها.»

كان يتكلم بلهجة مترفعة بدا فيها بجلاء احتقاره لغبائها، فاحمر وجه ليندا.

فقال رجل آخر: «انك فعلاً تبدو مشعث الهيئة.» عند ذلك استدارت امرأة كانت قد ترجلت عن الحصان لتوها، وقالت: «يا له من موقف بطولي... افسحوا المجال لباك للتصرف كبطل شهم، فنصفق له جميعاً.»

لم يكن ثمة شك في أنها كانت تريد اغاظته، واطلقت ضحكة مصطنعة وهي تضيف قائلة: «ما اكثر مهارتك، يا عزيزي باك، في ان تعثر على مثل هذه الفتاة الجميلة لانقاذها.»

وضحك اثنان من الرجال، ثم قال احدهما: «ان ما أنت بحاجة إليه، يا باك، في حالتك هذه، هو فنجان من الشاي وحمام دافىء.»

ولم يجب الدوق، بل قاد حصانه إلى الدرجات كي تترجل ليندا، ثم اسرعت تصعد الدرجات بينما اخذ الرجال يسألون الدوق عن كيفية حصول الحادث، وهتف رئيس الخدم العجوز ذاهلاً عندما وقع بصره على ليندا عند دخولها الردهة. فطلبت منه قائلة: «أرسل إليّ خادمة.»

كانت تريد أن تركض، ان تبتعد عن الدوق والرجال الذين كانوا يضحكون منه.

كانت تريد كذلك ان تهرب من شعورها بالضيق والإذلال.

وتساءلت وهي تدخل غرفتها، كيف اتصرف بهذه الحماقة في أول يوم لي في البيت؟ وما أن دخلت غرفتها حتى اخذت تفكر في مبلغ كراهيتها للدوق، ولشد ما أزعجها ان ترى نفسها مدينة له بالشكر.

الفصل الثاني

ساعدت السيدة ميدوز ليندا على تبديل ثيابها، ثم اصرت عليها بملازمة الفراش، قائلة: «لقد حدث لك صدمة، يا سيدتي، وعندما يحدث لك أمر كهذا، فعليك بالراحة.»

فأطاعت ليندا السيدة ميدوز حيث أنه لم يكن في نيتها النزول لتناول الغداء مع الضيوف وإخبارهم عما حدث لها بالتفصيل.

وجيء إليها بغداء لذيذ، ولكنها كانت تشعر بالتعب. وكانت تعلم أن ذلك بسبب كمية المياة التي ابتلعتها. وهكذا أخذت تعبث بالأطباق التي أرسلتها الطاهية لتستسلم بعد ذلك الى النوم.

* * *

استيقظت ليندا في موعد تناول الشاي. وحدثت نفسها بأنها ستنزل في موعد تناول العشاء، فقد كانت تعلم أن عليها أن تعين أباها كما كانت أمها تفعل، وقد علمت من السيدة ميدوز بأن إحدى قريباتهم في المنزل.

كانت اللايدي هيلبروف قد مثلت الليلة الماضية دور المضيفة أثناء حفلة العشاء، ثم الغداء بعد ذلك.

وقالت السيدة ميدوز: «أظن أن اللايدي سترحل بعد تناول الشاي، ولهذا يريدك سعادة الدوق، بما أنك عدت إلى البيت الآن، أن تجلسي في رأس المائدة.»

وسكتت لحظة، ثم أضافت تقول: «وستبدين جميلة جداً. لقد كنا نقول إنك أصبحت الآن شديدة الشبه بوالدتك، والتي لا ينكر أحد أنها كانت رائعة الجمال.»

فقالت ليندا: «لقد كانت كذلك حقاً. كم أتمنى لو انها ما زالت حية.»

وبدت عليها التعاسة وهي تتلفظ بهذه الكلمات، ولم تكن تريد أن تستمر السيدة ميدوز في الحديث عن أمها.

ذلك أنه كان من المستحيل عليها أن تمنع الدموع من الإنهمار من عينيها.

لقد كان الأمر في المدرسة مختلفاً، إذ لم يكونوا يعرفون أمها. أما هنا، فكل شخص عاش معها وأحبها، كان من الصعب ألاّ يبكي فقدانها على الدوام.

كانت ليندا مرتاحة في غرفتها دون أن يكون لديها فكرة عما يحدث في الطابق الأسفل.

كان الضيوف قد عادوا من نزهتهم وتناولوا الشاي.

عند ذلك أخبرت اللايدي هيلبروف إبن عمها الدوق أنها تريد أن تتحدث إليه.

فأخذها الدوق إلى مكتبه، وقال لها: «إنني آسف لرحيلك، يا إديث، ولكنني شاكر لك جداً قدومك لمساعدتي.»

فقالت اللايدي هيلبروف: «لقد استمتعت للغاية في الواقع. اما الذي أريد أن اتحدث إليك عنه، يا آرثر، فهو ليندا.»

فسألها الدوق بقلق: «هل هي بخير الآن بعد ما حدث لها؟»

فأجابت اللايدي: «أعتقد ذلك ولكنني لم أذهب لرؤيتها

لأن السيدة ميدوز قالت إنها نائمة. ستكون بأتم خير، وهذا أقل ما يمكن أن يقال بعد أن أوشكت على الغرق.»

فقال الدوق: «إنني شاكر جداً للدوق باكينغتون لإنقاذه لها.»

فقالت اللايدي: «وهذا ما جئت لاتحدث عنه معك.»

فرفع الدوق حاجبيه ولكنه لم يقل شيئاً، وبعد دقيقة، تابعت إبنة عمه قائلة: «ان مسألة إنقاذه لها من الغرق، قد أحدث جواً مثيراً بين ضيوفك. وأنا خائفة جداً من أن ذلك، عندما يأخذون في الحديث والثرثرة عنه في لندن، سيؤثر على سمعة ليندا.»

فعبس الدوق، وقال: «هل أنت واثقة من ذلك.»

«لقد بدا واضحاً على الكونتيسة أوف إيفرشام أنها تفكر في القيام بذلك، وهي امرأة حقيرة جداً.»

فازداد عبوس الدوق، فهو لم يحب الكونتيسة إيفرشام يوماً ما، رغم أن زوجها كان فارساً ممتازاً بشكل خاص.

وتابعت اللايدي هيلبروف: «إن الكونتيسة، لسوء الحظ مقربة من الملكة. أنت تعلم مبلغ حرص الملكة على أن تحافظ الفتيات الشابات على سمعتهن من الغيبة قبل الزواج.»

سكتت لحظة، ثم عادت تقول: «اظن أن عليك يا آرثر، أن تكلم إلى الدوق اوف باكينغتون بهذا الخصوص.»

ساد الصمت إلى أن قال الدوق أوف مارلو بلهجة بان فيها الإستنكار: «هل تراك تقترحين أن علي أن أطلب منه أن يقوم بإصلاح ما قد يبدو للناس عملاً غير لائق؟»

فأجابت اللايدي: «هذا ما أريد قوله بالضبط، وطبعاً، حيث أنه رجل شهم، فهو سيعرف واجبه.»

ونظرت إلى ساعة الحائط، ثم قالت: «إن عليّ أن أذهب الآن، ومن سوء الحظ أن ليس بإمكاني البقاء مدة أطول لأن زوجي سيقيم حفلة عشاء.»

فقال الدوق: «طبعاً طبعاً يا أديث، إنني شاكر لك جداً.»

وسار معها إلى الباب الأمامي، وانتظر إلى أن غابت عربتها عن الأنظار.

عند ذلك قال لرئيس الخدم: «أطلب من سيادة الدوق أوف باكينغتون أن يقابلني في المكتب وأظنك ستجده في غرفة البليارد.»

فانحنى رئيس الخدم، ثم أسرع مبتعداً.

عاد الدوق إلى مكتبه، حيث انتظر حوالي العشر دقائق قبل أن يدخل الدوق أوف باكينغتون. ثم سأله: «هل أردتني، يامارلو؟»

فأجاب الدوق: «نعم، إني أريد أن أتحدث إليك يا باك. إجلس واسكب لنفسك كوباً من العصير.»

فقال باك: «شكراً، إني أستحق هذا، فقد هزمت لتوّي هاري بنقطة واحدة على منضدة البليارد.»

سكب الدوق أوف مارلو كوب العصير وناوله له، ثم وقف وظهره إلى المدفأة وهو يقول ببطء: «أولاً، أريد ان أشكرك لإنقاذك حياة إبنتي. لقد كان تقصيراً شائناً مني إذ لم اخبرها بأن ذلك الجسر كان معطوباً، ولكنني لم أكن أتوقع منها أن تذهب إلى الغابة بهذه السرعة بعد عودتها.»

فقال الدوق برقة: «كان يجب عليك أن تعلمها السباحة، فهذا شيء يتعلمه كل إنسان في المدرسة، ولكن يبدو أنه شيء غير لائق بالنسبة للشابات.»

ضحك وهو يقول ذلك ولكن الدوق أوف مارلو كان يبدو جاداً وهو يقول: «إن إنقاذك لها ينم عن شهامة كبرى، وهذا طبعاً يتماشى مع ما هو معروف عنك.»

أجاب الدوق أوف باكينغتون: «من حسن الحظ أنني كنت موجوداً هناك، فقد تركت الذين كنت أتنزه معهم، لأنني تذكرت أنني كتبت رسالة غاية في الأهمية هذا الصباح إلى مكتب البريد.»

فأومأ الدوق برأسه، بينما تابع هذا يقول: «ربما يهمك أن تعلم ما تحتويه الرسالة تلك. إنني أحاول الحصول على جياد فرانكلين الستة التي سيعرضها للبيع يوم الثلاثاء القادم.»

فتنهد الدوق أوف مارلو، وقال: «إنني أحسدك على ذلك، فأنا أتمنى أن أحظى بتلك الجياد لنفسي، ولكنني لا أستطيع دفع ثمنها.»

فقال الدوق أوف باكينغتون: «كذلك أنا خائف من أن تكلفني مبلغاً كبيراً. ولكن تلك الجياد رائعة بشكل خاص، وربما يربح واحد منها سباق الدربي.»

فقال الدوق أوف مارلو: «إذا أنت أدخلت أحدها السباق ذاك فأنا سأسانده بكل تأكيد.»

وساد صمت عاد يقول بعده: «إن السبب الذي جعلني أطلب رؤيتك يا باك هو أن إبنة عمي، اللايدي هيلبروف، التي تعرفت أنت إليها الليلة الماضية، أخبرتني قبل أن

ترحل قبل قليل بأنها منزعجة جداً من شهامتك بالنسبة إلى ليندا إبنتي.»

فرفع الدوق باكينغتون حاجبيه، ثم سأله: «أتعني أنني أسأت إليها؟»

فأجاب الدوق أوف مارلو: «كلا، كلا ليس هذا، إن إبنة عمي تفكر في سمعتها. والظاهر أن الكونتيسة إيفرشام قد بدأت تحوك القصص والتعليقات حول هذا الأمر.»

فتوترت شفتا الدوق اوف باكينغتون.

لقد كان يعلم بالضبط لماذا تتصرف الكونتيسة هذه، بهذا الشكل الكريه كلما كان الأمر متعلقاً به.

فقد كانت تترصده كما يترصد الصياد طريدته، وذلك منذ ستة أشهر تقريباً.

ثم قال بصوت مرتفع: «ما كان لك أن تهتم بأي شيء تقوله الكونتيسة إيفيرشام. فهي لا تقول كلمة حلوة إلا عن طريق الخطأ.»

فأطلق الدوق أوف مارلو ضحكة قصيرة، ثم أجاب: «لسوء الحظ، كما نعلم نحن الإثنان، أن للكونتيسة كلمة مسموعة عند الملكة. وأنا لا أريد أن تتدمر سمعة إبنتي حتى قبل أن تقوم بمقابلة الملكة المنتظرة في قصر باكنغهام.»

وكان يتكلم ببطء وكبرياء.

وكأنما أدرك الدوق أوف باكينغتون فجأة هدف الدوق من هذا الحديث، فسأله: «لا أظنك تقترح أن...»

فقاطعه الدوق: «أظنك فهمت أن عليّ، في المقام الاول، أن أفكر في إبنتي، فهي، كما تعلم، إبنتي الوحيدة وغالية جداً لديّ.»

فأخذ الدوق اوف باكينغتون نفساً عميقاً، ثم وضع كوبه من يده ووقف، ثم سار نحو النافذة حيث أخذ ينظر إلى غروب الشمس بعينين لا تريان. ثم قال بصوت يكاد لا يشبه صوته العادي: «إنك تطلب الكثير يا مارلو.»

فرد عليه الدوق يقول: «إنني أطلب منك أن تتصرف كسيد شهم.»

وساد الصمت إلى أن قال الدوق أوف باكينغتون وكأنه يتحدث إلى نفسه تقريباً: «ليس لي نية في الزواج قبل عشر سنوات على الأقل.»

فأجاب الدوق أوف مارلو: «يمكنني تفهم ذلك، ولكن عليّ أن أفكر في ابنتي.»

وعاد الصمت مرة أخرى، وبدا الجوّ بين الاثنين مشحوناً بالقلق.

ثم، وكأن الدوق أوف باكينغتون أدرك بأن ليس هناك ما يمكن عمله، قال بصوت خشن: «حسناً جداً، يا مارلو. سأتزوج إبنتك، ولكن من يعلم أي نوع من الأزواج سأكون لإبنتك غير الناضجة!»

ولم ينتظر جواباً من الدوق، بل استدار وخرج من المكتب. لم يغلق الباب خلفه، بل تركه نصف مفتوح، وسمع الدوق أوف مارلو خطواته تبتعد في الممرّ متوجهة نحو القاعة.

وتنهد الدوق مرتاحاً.

لقد كان يعرف أن باكينغتون، من دون كل الرجال، لا ينوي الزواج.

وعلى كل حال، فقد حدث الدوق نفسه بأنه ما كان في استطاعته أن يفعل غير ذلك بالنسبة لهذا الظرف، فقد كان من

سوء حظ باكينغتون أنه كان هو بالذات الذي أنقذ ليندا من الغرق.

ولو كان من قام بذلك أي أحد آخر، لتغاضى الجميع عن هذا، أو أخذ الآخرون يضحكون منه فترة، ثم ينسون كل شيء.

ولكن الدوق أوف باكينغتون ما زال منذ ورث اللقب هو المطمح الأكبر فيما يختص بالزواج. وكان الدوق يعلم أن ليس هناك أسرة في انكلترا لا ترحب بمصاهرته.

فمنازله الرائعة، وثروته الطائلة ليست سوى الخلفية للرجل نفسه.

فهو مثار الإعجاب، وموضوع الأحاديث والحسد منذ أصبح من أعضاء المجتمع المهيمن.

والدوق لم يستطع أن يتذكر إسمه مقترناً باسم أيّ فتاة من باب التخمين بأنه سيتزوجها.

كانت كل الأحاديث عنه، مختصة بحياته الاجتماعية التي تجعل الألسن الثرثارة في عمل دائم على مدار السنة.

وفي نفس الوقت، كان من الممتازين في ميادين الرياضة.

ولم يكن هناك رجل ذو شأن، لم يحاول منافسته، وقد أدرك الدوق، أن الروح الرياضية التي تتملك الدوق أوف باكينغتون، هي التي جعلته يمتثل لرغبته.

فأي رجل أقل منه مزايا، كان حراً بأن يتسلل بعيداً عن هذا المأزق الذي وقع فيه دون قصد.

وحدّث الدوق اوف مارلو نفسه، بأن هذا من سوء حظ باكينغتون ولكن هذا الأمر، في نفس الوقت شيء شيّق جدًا إذ

هو لم يأت بفائدة لشخص ما، وكان وهو يحدث نفسه بهذا، يفكر في مبلغ الفوائد غير المحدودة له فيما لو أصبح الدوق أوف باكينغتون صهره في هذا الوقت بالذات.

ولكنه، والحق يقال، لم يخطر للدوق أوف مارلو قبل الآن، مبلغ الفائدة التي سيجنيها هو شخصياً من وراء زواج ليندا هذا.

الآن فقط ادرك مبلغ ضخامة هذا الأمر. ها هو ذا يرى الآن فجأة، العالم كله وقد أصبح مشرقاً عما كان عليه.

ألقى نظرة على ساعة الحائط، فأدرك أن وقت ارتداء ملابس العشاء قد حان، وتساءل عما إذا كان عليه، وهو في طريقه إلى غرفته، أن يمرّ على إبنته ليحدثها في هذا الأمر.

ولكنه ما لبث أن حدّث نفسه بأن هذا لن يكون عملاً صائباً.

ذلك أن باكينغتون سيرحل غداً صباحاً، ودون شك، سيحب أن يعرض عليها الزواج بنفسه وبطريقته الخاصة.

عندما تهيأت ليندا للإنضمام إلى الضيوف، وجدتهم مجتمعين غي غرفة الجلوس. دخلت الغرفة، وكانت تبدو غاية في الجمال بثوبها الأبيض الذي ابتاعته من باريس.

ولكن، على كل حال، لم يصدر عن المجتمعين ما ينم عن الإعجاب، وإنما فقط نظرات فضولية حدقت بها من كل جانب.

وسألتها واحدة من السيدات: «هل أنت بخير الآن؟ لقد كنا قلقين بشأنك. لابد أنها كانت صدمة فظيعة.»

فأجابت: «إني بخير تماماً. شكراً.»

فقالت الكونتيسة: «لابد أنك تعمدت أن يكون وقت سقوطك في اللحظة المناسبة. يا له من حظ سعيد أن يكون مرور باك في تلك اللحظة بالذات، أو ربما كان هناك موعد بينكما أنتما الإثنين.»

لقد كانت الكونتيسة تتوخى إغاظتها حتما، ولهذا فضلت ليندا عدم الإجابة.

وبدلاً من ذلك، اتجهت إلى أحد أصدقاء والدها وقالت: «أخبرني عما فعلت جيادك في السباق أمس. لقد أصبت بخيبة أمل إذ فاتني رؤية ذلك.»

ولأنها تجنبت إجابة الكونتيسة على سؤالها ذاك، فقد أخذ بعض الضيوف يتبادلون النظرات.

وفي تلك اللحظة بالذات، دخل والدها الدوق أوف مارلو الغرفة، وهو يقول: «أرجو أن تتغاضوا عن تأخري هذا، فقد نسيت الوقت.»

فقال واحد من الضيوف: «هذا عذر سمعناه ألف مرة. بينما هناك، عادة سبب وجيه تماماً لهذا.»

فقال رجل آخر: «وطبعاً، هو سبب جميل.» وضحك الجميع، ولكن الدوق أوف مارلو لم يشاركهم ذلك.

فقد خطر له فجأة أن الدوق أوف باكينغتون ربما غادر القصر دون أن يتصرف بما وعد.

ولكن الارتياح ما لبث أن تملكه وهو يراه يدخل الغرفة، ثم يقول للدوق أوف مارلو: «آسف لتأخري.»

فقال أحد الضيوف معلقاً: «ظننت أنك ربما ذهبت للقيام بشوط آخر في السباحة.»

فلم يجب الدوق مما جعل النكتة تخمد.

وعندما أعلن عن ابتداء العشاء، مشى الدوق أوف مارلو بجانب الكونتيسة إيفرشام، وأثناء سيرهما في الممر، قالت له: «إن إبنتك الجميلة تبدو اكثر انشراحاً بعد ذلك الحادث المثير. هل كان حادثاً حقيقياً أم تظنه طريقة جديدة للإجتماع سراً؟»

وضحكت، ولكن الدوق كان عابساً وهما يدخلان غرفة الطعام.

وكانت ليندا قد أخبرتها مديرة المنزل أن عليها أن تجلس في رأس المائدة.

وشعرت بالارتياح عندما رأت أن الجالس إلى يمينها لم يكن الدوق أوف باكينغتون.

فقد كان يجلس إلى جانبيها رجلان مسنآن، ما جعلها تشعر بالارتياح في التحدث إليهما.

وعندما تركت السيدات المائدة، أبدت كل منهن للدوق أوف مارلو إعجابها بلطف ورقة إبنته.

وقالت واحدة منهن: «لابد أنك مسرور لعودتها إلى البيت، يا آرثر.»

وقبل أن يجيب الدوق، قال أحد الرجال: «بالنظر إلى جمالها، لا أظنها ستبقى في البيت وقتاً طويلاً.»

فاختلس الدوق نظرة من الدوق اوف باكينغتون الذي لابد أنه سمع هذا القول. وإذ رأى أن صهر المستقبل يبدو عليه الضيق، غيّر الموضوع حالاً.

وعندما التحق السادة بالسيدات، ذهب البعض منهم إلى غرفة الجلوس. واربعة من الرجال ذهبوا إلى غرفة

البليارد، وهكذا، كما كان يتمنى الدوق، حيث بقي الدوق أوف باكينغتون وليندا وحدهما.

وبدا وكأن الحظ بين يديه، وأن عليه هو أن يتسلم زمام المبادرة. فقال: «أظن يا ليندا، ان الدوق لديه ما يقوله لك، وربما من الأفضل أن تذهبي معه إلى غرفة الموسيقى حيث لن يقطع حديثكما أحد.»

فبدت الدهشة على وجه ليندا، ولكنها عادت ففكرت في أن أباها يريد منها أن تشكر بنفسها الدوق أوف باكينغتون لإنقاذه حياتها. ولكن هذا شيء يمكنها أن تقوم به هنا حيث هي واقفة، ولكن لافائدة من الجدل.

وهكذا سارت أمام الدوق مجتازة الممر نحو غرفة الموسيقى.

كانت غرفة جميلة جدا، لولا حاجتها إلى الإصلاح، وكانت الجدران بحاجة إلى دهان، كما أن الستائر كانت رثة حائلة اللون.

وعلى كل حال، كان هناك بيانو كبير الحجم كانت أمها تعزف عليه منذ كانت ليندا طفلة.

كما أنها هي نفسها كانت عازفة بارعة حيث أنها تلقت دروساً، حين كانت في المدرسة، على يدي معلم ممتاز.

وما أن دخلت الغرفة، حتى لاحظت أن الأزهار التي تحتل مكان النار في المدفأة، حيث أن الفصل كان صيفاً، أنها بحاجة إلى تغيير.

قالت ليندا بسرعة: «لا أدري لماذا أرسلنا أبي إلى هنا، ماعدا، طبعاً، أن علي أن أشكرك بكل إخلاص لإنقاذك حياتي.»

وسكتت، ثم عادت تقول: «قال أبي إنه كان يعلم أن الجسر معطوب، ولكنه لم يكن يتوقع أن أذهب إلى الغابة بهذه السرعة بعد رجوعي من فرنسا.»

فقال الدوق بشيء من الجهد: «إنني مسرور إذ كنت هناك وقت حدوث ذلك الحادث لك. على كل حال، فقد أوضح أبوك تماماً توقعاته.»

فبانت عليها الحيرة، وسألته: «توقعاته؟»

«نعم والتي هي بالطبع أن أطلب منك أن تمنحيني الشرف بأن تكوني زوجتي.»

فحملقت ليندا به وكأنها لم تصدق ما سمعته أذناها.

ثم قالت باستنكار: «زوجتك...؟ كلا بالطبع، ليس لدي رغبة بالزواج، ومنك على الأخص...»

وسكتت، وقد أدركت أنها على وشك أن تصبح قليلة التهذيب. لم تستطع أن تتصور السبب في أن يتكلم الدوق أوف باكينغتون بهذا الشكل غير المعتاد.

ولكن الدوق قال وقد بدت عليه الدهشة: «ألم يتكلم معك أبوك عن هذا الأمر؟»

فسألته: «يتكلم عن ماذا؟ أنا لا أفهم. ما الذي تتحدث عنه ياسيادة الدوق؟»

فقال بلهجة تهكمية: «إذن، فالأفضل أن أوضح الأمر. إن أباك واكثر الضيوف هنا كما يبدو، يرون أنني قد عرضتك للشبهة حين أنقذتك من ذلك القعر المائي.»

وتنهد، ثم تابع يقول: «وعلى كل حال، ياالايدي ليندا، إني مضطر إلى تخليصك من هذه الشبهة، وذلك بأن أجعلك زوجتي.»

ومن لهجته، لم يكن هناك أدنى شك بما يشعر به حقاً نحو هذا الأمر، وهكذا سارت ليندا نحو الباب وهي تجيبه قائلة: «كل ما يمكنني قوله، يا سيادة الدوق هو أنه إذا كانت هذه هي طريقتك في المزاح، فأنا أراها خالية تماماً من الذوق.»

فتحت الباب وخرجت تاركة الدوق يحملق في أثرها.

بعد أن خرجت ليندا من غرفة الموسيقى، اندفعت صاعدة إلى غرفتها. لم تحمل عرضه الزواج عليها على محمل الجد ولو للحظة واحدة كما أصبح في نظرها بغيضاً ممقوتاً اكثر من قبل.

عاد الدوق إلى غرفة الجلوس حيث وجد الدوق أوف مارلو وحده نظر إليه هذا متسائلاً، فأجاب الدوق اوف باكينغتون: «إنك لم تنذر إبنتك بما كان متوقعاً أن يحدث، ولهذا ظنت انني أمزح معها بشكل غير مستحب، وفي الواقع أجابت بأنها لا تفكر في الزواج وخصوصاً مني أنا.»

أخذ استيعاب ما حدث عدة لحظات من الدوق أوف مارلو، قبل أن يقول: «يا عزيزي باك. انها غلطتي في عدم إعلام ليندا بأنك تريد عرض الزواج عليها، فهي صغيرة السن وبريئة بالنسبة للمجتمع، فقد عادت حديثاً من المدرسة. دع كل شيء لي. إنني أؤكد لك أنه لن يكون هناك أية مشكلة في المستقبل.»

ولم يجب الدوق أوف باكينغتون، وإنما ترك الدوق أوف مارلو وخرج إلى الردهة ومن ثم إلى خارج المنزل.

كانت جياده في الإسطبل، فذهب إليها شاعراً بأنها في هذه اللحظة، هي أفضل سلوى له من أي إنسان.

وأثناء طريقه إليها، صمم على أن يغادر هذا القصر في الصباح الباكر، تاركا الدوق أوف مارلو يتصرف مع ابنته كما يشاء.

وكان يرجو أن تكون عنيدة فيما يتعلق برفضها الزواج منه، ولكن هذا الرجاء كان بعيداً عن التحقق.

فقد كان يعلم جيدا بأهميته البالغة عندما يتعلق الأمر بمسائل الزواج.

كما كان يعلم أيضاً أن الدوق أوف مارلو سيبذل كل ما في طاقته البشرية لكي لايدعه يفلت من هذه المصيدة.

وأخذ يربت على جياده وهو يتمتم قائلا: إن بإمكاني السفر إلى الخارج والعيش هناك. لماذا أزعج نفسي مع فتاة لا تريدني، كما أنه لا رغبة لديّ في اتخاذها زوجة.

لقد نفر الدوق من فكرة الزواج منذ اقترحت عليه جدته تلك لأول مرة، عندما بلغ الواحدة والعشرين من العمر.

لقد قالت له حينذاك: «كلما أسرعت بالزواج، كان ذلك أفضل، فحيث أنك نلت إرثك ولقبك في هذه السن المبكرة، كانت بحاجة إلى زوجة تساعدك وتحميك من ملاحقة تلك المخلوقات المتألقة اللاتي يحمن حولك كما تحوم النحل حول خلية العسل.»

فأجابها بأدب: «ليس لي رغبة، حالياً، بالارتباط بزوجة من تلك النوع الذي يعجبك.»

وكانت هذه أول الملاحظات التي لا تنتهي والتي يوجهها إليه أقاربه، والذين كانوا لا ينفكون عن القول له مرة بعد مرة: «يجب أن تستقر، يا باك وتنجب وريثاً.»

وعلى كل حال، فقد تعلم بعد سنتين كيف يعالج هذا الموقف بشكل فعال، فكان يجيب قائلاً: «هناك الكثير من الوقت، وعندما أتخذ زوجة ستدهشكم دون شك.»

وكان يفكر هازلاً، وهو يقول هذا، فيما سيقولونه لو أنه أحضر لهم زوجة أفريقية أو يابانية.

ولكنه كان يعلم أنه لن يضحك أحد لهذا، ماعداه ولكنه في الحقيقة كان مليئاً بالرغبة في أن يملأ مكان أمه بامرأة تكون مفخرة للأسرة.

يجب أن تكون المرأة المناسبة لتكون أماً لأولاده أما ما لم يكن يتوقعه، فهو أن يفرض عليه وضع كهذا.

وعلى كل حال، فالعرف غير المكتوب للسلوك الإجتماعي كان واضحاً جداً.

لقد حكم عليه، في هذه الظروف أن يطلب من فتاة لم يرها سوى اليوم، أن تتزوجه. ومع هذا، فقد وجد من الصعب عليه أن يصدق أنها رفضته.

ذلك أنه لم يتوقع قط أن ترفض إمرأة طلبه للزواج منها.

فهي ستكون الدوقة أوف باكينغتون، وارثة لقب وصيفة الملكة الخاصة، والمسؤولة بالنسبة لمئات من مختلف الأمور المماثلة لمسؤولياته.

وحدّث نفسه بأنه، بشكل ما يمكنه أن يفهم رفض اللايدي ليندا له بأنها ظنته يمزح.

وأخيراً هز كتفيه محدثاً نفسه بأن على مارلو أن يتصرف مع الموقف.

انه يترك كل شيء له أما هو، فسيعود إلى لندن.

ولكنه، فيما بعد عندما أوى إلى فراشه دون أن يلقي

بتحية المساء على أي شخص أخذ يتساءل بمرارة عن سوء حظه الذي يعبث به بهذا الشكل الماكر القذر.

وتمنى في هذه اللحظة، كما سبق وتمنى مليون رجل قبله، لو أن في إمكانه إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

إنه، عند ذاك سيترك فتاة متعبة لا يعرفها، تغرق في المياه.

الفصل الثالث

نزلت ليندا إلى غرفة الطعام لتناول الإفطار مع الكونتيسة إيفرشام.

هناك أيضاً أحد الضيوف الرجال وكان قد أنهى قهوته للتو، فقام وغادر الغرفة.

قالت الكونتيسة: «لا شك أنك سببت حرجاً وفوضى أمس.»

فأجابت ليندا: «لم يكن الأمر بيدي. فقد اعتدت الذهاب إلى الغابات على الدوام مجتازة ذلك الجسر بشكل خاص، ولم تكن لدي فكرة عن أنه معطوب.»

ابتسمت الكونتيسة بتعجرف وكأنها لا تصدق هذا القول، ثم قالت: «وطبعاً، كان على الدوق أن يمرّ في تلك اللحظة بالضبط. والطريقة التي أنقذك بها ستبقى قصة سيرويها كل إنسان في لندن مستمتعاً.»

أدركت ليندا أن الكونتيسة كانت تستفزها عمداً، ولهذا بقيت صامتة.

فتابعت الكونتيسة تقول: «حيث أن أمك العزيزة لم تعد بيننا، فأنا أشعر أن من واجبي أن أحاول تحذيرك لكي تتصرفي بالشكل الذي تتوقعه منك. إن آخر ما يمكن أن تقبل به أمك هو أن تتورطي مع الدوق أوف باكينغتون المعروف بسمعته السيئة.»

لم تحاول ليندا أن تنهي إفطارها، ولكنها قالت بدلاً من

ذلك: «أؤكد لك أنه لم تكن لي رغبة في الوقوع في الماء وإغراق نفسي، ومع أنني شاكرة جداً لشهامة سيادة الدوق، إلا أنني لا أرى ثمة سبباً للحديث عن هذا الأمر، أو حتى تذكره.»

وعندما أنهت حديثها، غادرت الغرفة.

بينما كانت تغلق الباب خلفها، سمعت الكونتيسة تضحك.

وحدثت نفسها بغضب بأنها تكرههم جميعاً.

فإذا كان هذا هو نوع المجتمع الذي ستنخرط فيه في لندن، فإن من الأفضل لها أن تبقى في الريف.

صممت على الذهاب إلى الاصطبلات لترى الخيول، وبقيت هناك حوالي الساعة.

فقد كانت تأمل حين تعود إلى القصر، أن تجد بقية الضيوف قد رحلوا.

وكانت على صواب.

ذلك أنها عند عودتها أخبرها رئيس الخدم أن الجميع غادروا القصر وأن والدها في مكتبه.

وأضاف: «إن سيادته يريد أن يراك يا سيدتي.»

فأجابت: «وأنا أريد أن أتحدث إليه.»

وحيث أنها كانت متلهفة لرؤية أبيها، فقد ركضت في الممر إلى المكتب وفتحت بابه.

كان الدوق جالساً خلف مكتب فخم يعود تاريخه في الأسرة إلى عهد جورج الرابع.

وكان، بالإطار الذهبي الذي يحيط به، يترك تأثيراً بالغاً في النفس. وكذلك كان على المكتب محبرة ذهبية هي هدية من الملك عندما نزل يوماً في قصر مارلو.

أغلقت ليندا الباب خلفها وهي تقول بأسف: «علمت أنهم رحلوا جميعاً، يا أبي، والآن يمكنني التحدث إليك.»

فركضت نحوه وهي تقول: «لشدّ ما أحبك، يا أبي، وما أروع أن أعود إلى البيت.»

فأجابها: «وأنا مسرور جداً بعودتك.»

نظر إليها باسماً، ثم عاد يقول: «وأظن، يا غاليتي أن لديك ما تخبريني عنه.»

ففتحت ليندا عينيها بدهشة، ثم قالت: «لا شيء خاص... آه، إلا إذا كنت تعني تلك الطريقة الغريبة التي تصرف بها الليلة الماضية الدوق أوف باكينغتون.»

أجاب أبوها: «أنا أعني ذلك طبعاً. وأنا لا أرى هناك شيئاً أكثر أهمية من زواجك.»

فأطلقت ليندا شهقة قصيرة وهي تردد: «زواجي؟ من المؤكد أنك لا تريد مني، يا أبي، أن أقبل بعرض الدوق السخيف ذاك... للزواج مني.»

فأجاب: «أنا طبعاً أريد منك قبوله. فهذا أفضل ما يمكن حدوثه. لقد كنت آمل أن تحظي بزواج جيد، ولكن طموحي لم يكن يصل إلى الدوق اوف باكينغتون.»

فتملك ليندا الذهول إلى درجة لم تتمكن معها من الكلام، ثم قالت بعد لحظة: «لا يمكنك أن تكون جاداً، يا أبي. هل من المعقول أن أتزوج رجلاً لم أره سوى أمس، كما أنه رجل أكرهه وأحتقره؟»

فقال أبوها بحدة جعلتها تنظر إليه بدهشة: «إنك لا تدرين ما تتحدثين عنه. إن باكينغتون هو أهم دوق في البلاد. فهو مفرط الثراء، ومركزه في البلاط لا يماثله به أحد.»

فقالت: «ولكنك تملك كل ذلك، أنت أيضاً، كما أنني لا أرغب في الزواج من رجل لا أحبه.»

فاتكأ الدوق إلى الخلف، وقال: «والآن، دعيني أوضح لك الأمور. لقد عرض باكينغتون عليك الزواج بإذني. وقد قبلته صهراً لي بكل سرور.»

فقالت وهي ترغم نفسها على التكلم بهدوء: «أظن يا أبي أنك تنسى أنني أنا التي سأتزوجه... والجواب هو، كلا.»

حدق الدوق في ابنته، ثم أظلم وجهه وهو يقول: «أتريدين أن تخبريني أنك ترفضين أكبر حظ في المملكة، والرجل الذي بإمكانه أن يكون ذا فائدة قصوى لي قبل أيّ شيء آخر؟»

فردت عليه بحدة: «أنا التي سأتزوجه، يا أبي، وليس أنت.»

فنهض أبوها من خلف المكتب، وأخذ يسير على أرض الغرفة، ثم وقف كعادته وظهره إلى المدفأة، وقال بحزم: «والآن، إسمعيني جيداً. إنك ستتزوجين باكينغتون وتشكرين حظك الذي جعلك تظفرين بشخص مرموق مثله.»

فأخذت تجادله قائلة: «لن أتزوجه. لقد أدركت الآن أنك جعلته يعرض الزواج عليّ فقط بسبب تلك التعليقات السيئة التي صدرت عن الكونتيسة إيفرشام، وبعض الضيوف الآخرين.» وسكتت لتعود فتقول بغضب أشد: «هذا حسن جداً. فإذا كان ذلك سيمنعني من دخول مجتمع لندن، فأنا سأمكث هنا. وسأكون في غاية السرور عندما يتم إصلاح

الجسر فيصبح بإمكاني الذهاب إلى الغابات دون الخوف من الغرق.»

فاحمر وجه الدوق وأخذ يروح ويجيء وقد بدا عليه أنه يجاهد كي لا يصرخ في وجه ابنته. وعندما عاد ووقف أمام المدفأة، قال: «أظنك نسيت يا ليندا أنك لم تبلغي سن الرشد بعد، وأنني أبوك، وبالتالي عليك أن تطيعيني. إنك ستتزوجين الدوق أوف باكينغتون ولا أريد جدالاً في هذا الأمر.»

فأجابت بهدوء: «إنني لن أتزوجه، يا أبي! ولو كانت أمي حية لما أجبرتني على ذلك.»

ومرت فترة طويلة قبل أن يرد الدوق بقوله: «حسناً. إذن فالأفضل أن أخبرك بالحقيقة. إذا أنت لم تتزوجي باكينغتون، فإن عليّ أن أغلق القصر.»

فهتفت بذهول: «تغلق القصر؟»

أجاب: «نعم. إنه سيغلق ويترك لكي ينهار أنقاضاً والخدم المسنين سيذهبون إلى ملجأ الفقراء، وسوف تباع الجياد، وكل شخص في أملاكنا سيطرد من العمل.»

فقالت: «لا أدري ما هذا الذي تتحدث عنه. ما الذي تقوله؟»

فأجاب: «إنني أقول انني مفلس تماماً. إنني أرزح تحت وطأة الديون، وكنت معتمداً عليك في أنك، عندما نصل إلى لندن، ستحصلين على زيجة حسنة.»

وتهدج صوته وهو يضيف قائلاً: «لم أتصور قط أنك ستكونين محظوظة حتى تلفتين نظر باكينغتون.»

كانت ليندا ما تزال تحدق فيه بعينين متسعتين وقد

شحب وجهها. ثم سألته بصوت مرتجف: «أتراك تخبرني بالحقيقة... يا أبي؟ وهل الأمور بلغت هذا الحد... من السوء حقاً؟»

فأجاب: «وأسوأ من ذلك. فقد كنت أعتمد عليك كما سبق وأخبرتك. وكنت أمهل الدائنين بأعذار مختلفة حتى تعودي من فرنسا.»

فتأوهت ليندا بعمق، ثم قالت: «لا أستطيع أن... أصدق هذا.»

فقال بصوت خافت: «أظن أنني كنت مغفلاً. كان عليّ أن أتصرف قبل الآن فأتوقف عن الانفاق، وربما بإمكاني بيع بعض محتويات القصر بما يعود عليّ بشيء من المال.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «ولكنني بقيت متعلقاً بالأمل، معتقداً بأن الحظ سيتغير، والآن، ها هو ذا يأتي بشكل أشبه بالحلم.»

فهتفت بلهفة: «وكيف وصلت الأمور... إلى هذا الحدّ الذي تتحدث عنه؟»

أجاب: «لقد كانت سيئة إلى حد كبير قبل وفاة أمك. ولكن، كما تعلمين، كنت أحبها إلى حد لم أشأ لها بأن تشعر بالقلق بشأن المال. وكما قلت، كنت آمل بأن تتحسن الأمور.» وعاد يذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً، ثم عاد يقول: «كان الحصاد سيئاً، وبيوت المزرعة في حاجة ماسة إلى إصلاحات كثيرة.»

فقالت تذكره: «ولكنك ما زلت... تستضيف الناس.»

لم أستضف سوى سباق الخيل كعادتي كل عام. ولو كنت ألغيت هذا لتعرضت إلى كثير من التعليقات، ولكنني لأول

مرة، طلبت رسم دخول لأولئك الذين سيشتركون في السباق. وقد وفّر لي هذا ليس تغطية ثمن الجائزة فقط، وإنما عدة جنيهات لجيبي الخاص.»

شعرت ليندا من لهجة أبيها أنه يشعر بشيء من الإذلال لاضطراره للقيام بذلك.

ولكن قبل أن تقول شيئاً، عاد هو يقول: «ولكن هذا كان فقط قطرة من بحر. فإنني مدين للّحام في القرية؟ وللرجل الذي يحضر لي علف الجياد، فأنا لم أدفع له شيئاً منذ ستة أشهر حتى الآن، وكذلك للبيت في لندن. صدقي بأنني حاولت بيع بيتنا في بارك لين في لندن، ولكن ليس هناك من يحتاج بيتاً بهذا الحجم، كما أن سقفه بحاجة إلى مئات من الجنيهات لإصلاحه فهو، كما هو الحال في القصر هنا، موشك على السقوط بسبب الرطوبة.»

غطت ليندا وجهها بيديها.

كانت تحاول التفكير بوضوح، ولكنها أدركت الآن أن والدها يقول الحقيقة.

تابع الدوق يقول: «لم أكن أريد أن أخبرك بكل هذا، ولكنني بعت أثمن مجوهرات أمك.»

فصرخت: «آه، كلا يا أبي.»

فقد كانت تعشق مجوهرات أمها التي فتحت عينيها عليها متحلية بها.

ومنذ عودتها من فرنسا وهي تفكر في كيفية العناية بها.

هي أيضاً كانت ستشعر إذا هي تحلت بها، وكأن أمها ما زالت معها.

فقال الدوق: «كنت أعلم أن هذا سيحزنك، ولكن كان

عليّ أن أعطي شيئاً للدائنين الذي كانوا يقرعون بابي.»

فتمتمت: «إني... متفهمة يا أبي.»

فقال الدوق: «آمل أن تتفهمي كذلك، أن الطريقة الوحيدة لإنقاذي وإنقاذ بيتك، هو الزواج من باكينغتون.»

فقالت محتجة: «ولكنه... لا يرغب في الزواج مني.»

قال يجادلها: «إن عليه أن يتزوج عاجلاً أم آجلاً. فهو بحاجة إلى وريث. وإذا كنت تظنين أنه يتطلع إلى امرأة يحبها، فأنت لا تواجهين الواقع.»

فقالت متحدية: «ولمَ لا؟»

أجاب: «لأن الرجال أمثال باكينغتون يمضون فترة شبابهم في الحماقات، وهو قد أمضى فترة كبيرة في ذلك.»

ونظر إليها ليرى إن كانت تستمع إليه، ثم تابع يقول: «ولكن بالنسبة إلى الزواج، فرجل مثل باكينغتون يختار امرأة من طبقته الاجتماعية ومن سلالة تزيد من تألق شجرة العائلة عنده.»

فقالت بصوت خافت: «ولكنكما، أنت وأمي، كنتما متحابين.»

فقال الأب: «كنا محظوظين بشكل استثنائي. ولكنني لم أظن مطلقاً ولم أتصور لحظة أنني سأكون محظوظاً لدرجة أن أحظى بزوجة أحبها.»

فسألته: «أصحيح هذا؟ ولكن يا أبي، من غير الممكن أبداً أن تكون قد تصرفت قبل زواجك بالشكل الذي يتصرف به الدوق أوف باكينغتون الآن.»

فأطلق أبوها ضحكة أسف: «لقد تصرفت طبعاً بهذا

الشكل. فأنا أيضاً أمضيت شبابي في الحماقات وإن يكن بشكل أخف مما عليه باكينغتون الآن، ولم أكن متعجلاً الاستقرار إلى أن التقيت بأمك.»

ورقّ صوته وهو يقول: «وبعدها، لم تدخل امرأة أخرى في حياتي عداها.»

فقالت: «لقد فهمت يا أبي، وهذا ما أريده. أريد رجلاً يتزوجني لشخصي وليس لأنني ابنتك. وأريد الرجل لشخصه وليس لثروته أو لقبه.»

فوضع أبوها يديه على كتفيها، وقال: «وهذا ما أريده لك، يا حبيبتي ولكن، كما ترين، لا يمكننا الانتظار. وعدا عن ذلك، إذا أنت بحثت في المجتمع اللندني بأسره، فلن تجدي رجلاً بمثل ثراء باكينغتون.»

فنهضت ليندا عن كرسيها وسارت نحو النافذة.

ومرّ بذهن الدوق، بسرعة البرق، أن هذا بالضبط نفس ما فعله باكينغتون في نفس هذا الظرف.

وأخرج منديله يمسح به عينيه.

كان يعلم جيداً أن هذا الحديث ذو أهمية بالغة.

فهو يكافح الآن في سبيل كل شيء يهمه أمره. كان يكنّ لقصره بالغ الحب. فهو بيته من اللحظة التي فتح فيها عينيه على الحياة، وهو يشعر أنه، بانفصاله عنه، كأنه ينزع قلبه من جسده، وكانت هناك الجياد، وأكثرها ربّاها بنفسه.

فإذا لم تمتثل ابنته لما يريده منها، فلن يكون بإمكانه الاحتفاظ بتلك الجياد، أو انزالها إلى حلبات السباق.

وعلى كل حال، فقد أدرك أن ليندا تفكر بالموضوع. كان

يعلم أن حبه المتبادل مع زوجته، أنجب هذه الابنة المليئة حباً.

فقد نشأت ليندا في جوّ بيتي مختلف تماماً عن البيوت التي زاروها والناس الذين عرفوهم.

فقد كان الزواج بين أفراد الأسرة المالكة يحدث وفق التدابير والمصلحة. وبنفس الطريقة، كانت الأسر الارستقراطية تختار لابنها البكر، وارث اللقب، العروس المناسبة لاحتلال مركزها في القصر.

وليندا يمكنها التصرف بما ينتظر منها بحيث أن أيّ دوق أو ماركيز أو إيرل لا يمكنه أن يطلب أفضل من ذلك.

وإذ كان ينتظر بصمت، بينما ليندا تقف عند النافذة، شعر الدوق وكأنه رجل غريق يرى حياته تمرّ أمام عينيه.

رأى الأخطاء التي كان اقترفها، والفرص التي ضيّعها.

وفي نفس الوقت، كان يعلم أنه وزوجته، كانا يعيشان محترمين للغاية. وذلك من قِبَلِ أولئك الذين يعملون في الأرض، وأولئك الذين يعيشون في القرى والمزارع، والأصدقاء الذين عرفوهم في اجتماعات حفلات السباق.

كيف بإمكانه أن يطرد المستخدمين الذين أولوه ثقتهم؟ ليواجه، بعد ذلك، انتقادات وسخرية أولئك الذين كان يسميهم اصدقاء؟

كان الدوق ينتظر شاعراً بأن الشمس التي كانت تشعّ من النافذة، تنتظر هي الأخرى، معه. وكفت الطيور عن التغريد، كما لم تعد النحل تحوم حول الأزهار.

وأخيراً، استدارت ليندا لتواجه أباها.

قالت: «حسناً يا أبي. إنني... سأتزوج الدوق أوف باكينغتون... إذا كان في هذا... إنقاذ لك.»

فاجتاحت الدوق موجة من الارتياح.

وفتح لها ذراعيه، ولكنها استدارت ومشت نحو الباب، لم تنظر خلفها، وإنما خرجت من المكتب وأغلقت الباب وراءها.

* * *

في الأيام القليلة التي تلت، بدا كل شيء لليندا وكأنه غير حقيقي.

شعرت وكأنها تعيش في حلم غريب لا يمكنها الاستيقاظ منه.

وكان سرور أبيها، لقرارها هذا، غير محدود،

لقد أخبرها أنه ذاهب إلى لندن على الفور لمقابلة دوق أوف باكينغتون، حيث سيبحث معه مسألة إعلان الخطبة، ومن ثم الزواج، بأسرع ما يمكن.

قال لها: «لقد كنت طلبت منه إقراضي بعض النقود وطبعاً، لا يمكنني أن أطلب مقدار حاجتي قبل أن يتم زواجكما.»

فسألته: «أليس هناك ما... يمكننا بيعه، يا أبي؟»

فأجاب: «ليس ثمة شيء يمكن أن نبيعه بالمبلغ الكبير الذي نحن بحاجة إليه. وحالياً، لا يبدو أن هناك من يهتم باللوحات الفنية، والأثاث المصمّم ليكون في القصور.»

وكانت ليندا تعلم أن هذا صحيح.

فقد كان جدها الأكبر هو الذي رمم القصر، مضيفاً إليه

جناحاً كاملاً، مستخدماً في ذلك أمهر المهندسين، هذا إلى تكليفه أكبر صانعي الأثاث في المملكة.

لقد تملكها نفس شعور أبيها وهو أن ليس بإمكانها بيع خزانة الفضيات المصنوعة من خشب الماهوغاني، ولا الكراسي البيضاء الفاخرة في غرفة المائدة، ولا الأثاث الرائع المحفور والمطعم بالذهب والذي كان صممه فرانك المشهور، لغرفة الطعام.

ورأت أن الحق، دون شك، مع أبيها وهو يقول ان ليس هناك من يهتم بشراء أثاث لم يصمم أصلاً لمنازل كمنازلهم.

ولكنها شعرت بالكثير من الحرج وهي ترى أباها يقترض نقوداً من زوج المستقبل.

وتساءلت عما عسى دوق أوف باكينغتون أن يشعر به لذلك. ولكنها شعرت، على كل حال، أنه يتوقع ذلك بالنسبة لثرائه الطائل.

وكلما زاد تفكيرها فيه أدركت مقدار الغضب الذي لا بد تملكه وهو يرى نفسه قد وقع في مثل هذا الفخ.

وفكرت في أنه لا بد يتمنى لو أنه تركها تغرق.

وما لبثت أن تذكرت آلام أليس، فرأت أنه يستحق لهذا، ما يعانيه الآن.

وحدثت نفسها بأنها تكرهه، فهو طائش لا أخلاق له، وعلى كل حال، فإن عليها إنقاذ أبيها قبل كل شيء.

وعندما غادر أبوها القصر إلى لندن، أمرت هي بإصلاح ذلك الجسر الذي يعلو النهر.

جعلته أقوى وأعرض عما كان عليه في الماضي.

وبتوقف الأمطار، هبطت نسبة ارتفاع مياه النهر.

وعندما تمكنت من اجتياز الجسر إلى الغابة مرة أخرى، كانت مياه النهر قد انخفضت عدة أقدام.

وبدا هادئاً ساكناً لا يبدو عليه الخطر مطلقاً.

ووقفت وسط الجسر تنظر إلى الموقع الذي سقطت فيه، ولم تستطع منع نفسها من سؤال المياه الساكنة تلك عن السبب الذي جعلها تندفع إلى موقف لم تستطع الخلاص منه.

وفكرت في أنها لو كانت غرقت، لكان هذا أفضل.

ولكنها عادت فتذكرت بأن أباها، فيما لو كانت ماتت، كان ما يزال الآن في مثل وضعه المتأزم ذاك.

إنما دون أيّ أمل في إنقاذ نفسه.

ونظرت خلفها إلى القصر.

كيف أمكنهم أن يخسروا كل شيء ذا قيمة لحياة آل مارلو منذ مئات السنين؟

وكيف بإمكانها احتمال التفكير في أن كل اولئك الذين دللوها منذ طفولتها، قد أصبحوا مفلسين؟

لقد كان خدم القصر كبار السن يتصرفون وكأن القصر قصرهم. فهم يقولون مثلاً: «إن السقف عندنا بحاجة إلى إصلاح.» وما أشبه ذلك. وحدثت ليندا نفسها بأنهم أصبحوا جزءاً من الأسرة.

وكذلك بالنسبة إلى المزارعين، وقاطعي الأخشاب والبساتين وحراس الطرائد. فهم يتكلمون وكأن الأرض ملكهم، بنفس الشكل الذي هي فيه ملك سيدهم، الدوق.

ولم تشأ أن تتصور الذعر الذي سيصيبهم إذا طلب منهم

فجأة، مغادرة القصر ويجدوا لأنفسهم عملاً آخر أو يجوعوا حتى الموت.

يجب أن أنقذهم. إن عليّ أن أنقذهم.

وشعرت وكأن العصافير على الأشجار تردد معها هذا القول.

وذهبت عند الصباح إلى الاصطبل.

كانت الجياد ذات أهمية لديها بقدر ما كان لسائسيها الذين يعتنون بها.

وبعد الظهر، خرجت إلى الغابة.

عندما عاد أبوها، كانت تنتظره وقد تملكها الخشية بدلاً من الشوق.

كانت خائفة مما قد يخبرها به.

ولكنها، عندما نزل من عربته، أدركت من التعبير الذي كان يكسو ملامحه، أن كل شيء على ما يرام.

وقال: «ما أجمل العودة. هل كل شيء حسن؟»

«نعم يا أبي. وقد ولد مهر صغير في الاصطبل.»

فهتف: «ياله من خبر سار.»

وناول أحد الخدم عصاه وقفازيه، بينما ساعده رئيس الخدم على خلع معطفه وهو يقول له باحترام: «أهلاً بعودتك، يا سيادة الدوق.»

فقال الدوق: «أخبرهم في المطبخ بأنني جائع، وأنني أريد العشاء حالما انتهي من تغيير ثيابي.»

وكانت ليندا تعلم أن هذا كان شيئاً متوقعاً.

فقد مضى على السيدة بيل، الطاهية في القصر ما يزيد على العشرين عاماً.

وكانت تعرف كل أنواع الطعام التي يفضلها الدوق لعشائه.

وأثناء الحفلات المنزلية فقط، كانوا يحضرون طاهياً لمساعدتها لأنها قد نافت على السبعين، ولكنها كانت تكره حقيقة أنها لا تستطيع العمل وحدها.

وكانت والدة ليندا هي التي أصرّت على أن الطعام في القصر يجب أن يتفوق على طعام المنازل الأخرى.

وكانت قد سمعت أمها تقول مرة لأبيها بعد عودتهما من زيارة ما: «أظن ان الطعام الذي قدّم إلينا في قصر بلينهيم لم يكن صالحاً للأكل. إنك تعلم يا عزيزي أن طعامنا أفضل من ذاك.»

عند ذلك، نظر إليها زوجها بشغف وقال: «ليس بإمكان أحد أن يفعل ما تفعلينه، حتى في المطبخ.»

وضحك الاثنان.

وكانت ليندا تلاحظ السعادة المتألقة في عيني أمها على الدوام.

وكانت تفكر على الدوام، في أن هذا ما تريد أن تشعر به عندما تتزوج. وهذا ما أخذت تفكر فيه الآن.

صعد أبوها إلى غرفته مباشرة لكي يغيّر ملابسه.

ولم تسنح لها فرصة للتحدث إليه إلا بعد العشاء حين ترك الخدم الغرفة.

عند ذلك قالت بصوت حاولت أن يكون هادئاً: «ماذا... حدث، يا أبي؟»

فأجاب: «لقد قابلت الدوق. وقد وافق على أن ينشر نبأ الخطبة في الصحف على الفور ثم ذهب إلى القصر ليخبر

الملكة. وكان ينوي أن يرى بعض أعضاء أسرته آخر هذا النهار.»

فسألته بصوت خافت: «وماذا عن... العرس؟»

«إن باكينغتون يريد أن يقيمه في أقرب وقت لأنه يريد أن يعود من شهر العسل قبل أن يبدأ سباق الدربي.»

فتمتمت تقول: «في أقرب وقت؟ ما الذي يعنيه بهذا؟»

فأجاب: «بما أنه ليس لديك أصدقاء كثيرون في لندن، وبما أنه لا يرى ضرورة لدعوة أقربائه إلى العرس، فقد اتفقنا أن يكون الزواج هنا في ظرف أسبوعين ثم تذهبان إلى الخارج لقضاء شهر العسل.»

فجذبت ليندا نفساً عميقاً، بينما تابع أبوها: «إن عذره لهذه العجلة هو أن جدته مريضة منذ سنوات وقد تتوفى في أية لحظة، وهذا سيرجىء الزواج لفترة ستة أشهر وهي فترة الحداد.»

وكانت ليندا على وشك القول إن هذه فكرة جيدة جداً. ولكنها عادت فتذكرت أن أباها لا يستطيع الانتظار كل هذا الوقت.

فقالت بدلاً من ذلك: «وماذا بالنسبة إلى القرض...؟ هل وافق الدوق على منحك قرضاً... يا أبي؟»

فبدا شيء من الارتباك على وجه الدوق، ثم قال: «لقد فعل. وفي الواقع، كان كريماً جداً. كما أنه اقترح عليّ أن يوحّد خيول السباق، وكذلك تربيتهم، معاً، وهذا إذا حدث، ستكون له فائدة كبرى لي.»

فقالت: «إنني مسرورة... لأجلك، يا أبي.»

وإذ شعرت بالدموع تكاد تتدفق من عينيها، نهضت عن

المائدة وهي تقول متلعثمة: «سأذهب لأرى... إن كان كل شيء في... غرفة الجلوس جاهزاً... لحضورك.»

وأسرعت تغادر الغرفة.

فتابعها الدوق بنظراته وقد بدا على وجهه القلق، وهو يتمتم قائلاً: إن الطفلة المسكينة لن تعرف أبداً كيف تتعامل معه. أف من هذا الحظ الذي جعلني أوقع نفسي في هذه الورطة؟

وعندما قام متجهاً نحو الباب، كان يسير كرجل عجوز محطم.

الفصل الرابع

أمضت ليندا الأسبوعين التاليين في الذهاب إلى الغابات، فكانت تركب حصانها في نزهتها الصباحية، وبعد ذلك تمضي فترة العصر هناك، فقد كانت الغابات هي المكان الوحيد الذي تشعر فيه بالراحة وعدم الخوف. كان ابوها قد اقترح عليها أن تذهب إلى لندن لشراء بعض الملابس لجهازها، ولكنها رفضت، ولكن عمتها اللايدي هيلبروف هي التي جاءت إلى نجدتها، قالت انها ستمنح ليندا جهازها، هي هدية عرس، وستشتري لها الملابس من لندن بنفسها، فقد كانت أنيقة على الدوام، وكان الدوق واثقاً من أن ذوقها لا تشوبه شائبة وان ليندا لن تجلب الخزي لعريسها بين الناس. ومن حسن الحظ ان اللايدي هيلبروف كان لها ابنة تُعَدُّ من جميلات البلاد، وكانت تدعى دوماً إلى القصر الملكي، وهكذا كانت الأثواب التي ارسلتها إلى القصر رائعة الجمال فائقة الإتقان. ولكن ليندا رفضت النظر إليها، فقد انكمشت على نفسها، محاولة عدم تصور المستقبل المخيف.

وفي الليالي كانت تظل مستيقظة في ظلمة غرفتها حيث أمضت حياتها بعد تركها المهد.

وكانت أثناء ذلك، تتساءل عما عساها ان تفعل، وكانت لا تفتأ تسأل نفسها مرة بعد مرة، كيف أتزوج

هذا الرجل يا أمي؟ وكيف غرق أبي في هذه المشاكل وأنت غير موجودة لتساعديه؟ ولم يكن هناك جواب لأي من هذين السؤالين، وكانت تكافح بشدة كيلا تنفجر في البكاء. لقد كانت تعلم أنها إذا اسرفت في ذرف الدموع فسينتابها الصداع وسيبدو شكلها فظيعاً في الصباح. وهذا سيحزن أباها، فقد كانت تعلم، حيث أنه كان يتفانى في استرضائها، بأنه يشعر بالخجل من نفسه. وزادت كراهيتها للدوق أوف باكينغتون لما تشعر به من ألم وتعاسة، كانت تشعر وكأن كل شيء يضغط على صدرها، وان هناك خطراً يتهددها في كل ناحية، وأن الدوق أوف باكينغتون ما هو إلا غول ينتظرها في نهاية ممر طويل لكي يلتهمها. أدركت أن اعصابها متعبة، ولكنها، قرب البحيرة العميقة في الغابة، شعرت بأن الطيور انما تشدو لتبث في نفسها السلوان. وكانت النحل تطن مهمهمة لها بألاّ تخاف، وكانت الفراشات تحوم منتظرة لكي تأخذها إلى بلاد ليس فيها متاعب، وعلى الأخص عريس بالإكراه، يكرهها كما تكرهه، وبدا لها وكأن يوم العرس يقترب بسرعة. كان مايزال امامها ثلاثة ايام، ثم يومان، ثم... غداً!

ولولا حزنها ويأسها، لشعرت بالتأثر للهدايا التي تلقتها فقد تملك السرور الجميع عندما علموا بأنها ستتزوج، وكان أبوها يصرح مرة بعد مرة، ان العرس سيكون هادئاً لأن العريس قد يصبح في حالة حداد في أي وقت، ولكن لم يستمع إليه أحد، فكل أهل القرية صمموا على ارسال هدايا تعبر عن تهانيهم.

ولكن ليندا شعرت بأنها إنما تخدعهم بقبول هداياهم المعبرة عن تمنياتهم الطيبة في حين أنها لم تكن مقبلة على حظ سعيد. وكان الدوق أوف مارلو مشغولاً بالرواح والمجيء من وإلى لندن لكي يرى صهر المستقبل، وفهمت ليندا انهما كانا يعدان العدة لتنفيذ خطتهما في دمج اسطبلاتهما لجياد السباق معاً، وللمرة المائة قال الدوق أوف مارلو متلذذاً: «إن جيادنا ستتفوق على الجياد الأخرى.»

وردت هي عليه بصوت هادىء: «أنا واثقة من ذلك يا أبي.»

وفي اليوم السابق للعرس، وصلت اللايدي هيلبروف ومعها المزيد من صناديق الملابس، كما كان هناك مجموعة من القبعات الرائعة، وكانت الملابس متقنة إلى حد رائع وقالت اللايدي هيلبروف: «انك محظوظة لأن ابنتي ماريغولد كانت قد سبق وطلبت صنع بعض الأشياء لها، وها هي ترسل إليك الجاهز من تلك الأشياء.»

فقالت ليندا: «هذا من لطف اخلاق ماريغولد، وشكراً لشهامتك نحوي.»

فتابعت اللايدي هيلبروف تقول: «إن أهل لندن جميعاً يتحدثون عن عرسك هذا، ويمكنني ان اقول لك ان كثيرات من السيدات الجميلات متحسرات، وعدداً لا يحصى من الآباء الطموحين اصبحوا في حالة من الإستياء والشعور بخيبة الأمل بحيث لم يعودوا قادرين على الكلام عن هذا الزواج بشكل مهذب.»

وكانت تتحدث وتضحك.

فأشاحت ليندا بوجهها وهي تفكر في أنهم لو عرفوا الحقيقة، لما حسدها أحد.

وقالت اللايدي بلهجة سريعة: «والآن، ابتهجي. لقد تعبت من منظرك العابس وكأنك ضيعت نصف جنيه فوجدت بدلاً منه نصف شلن، ثم ليس هناك رجل يريد ان تبدو عروسه ليلة الزفاف كالأم الثكلى.»

ولم تملك ليندا إلا أن تضحك وهي تفكر في أن هذا وصف صائب لشعورها. وحيث ان شبح الحداد كان يحوم فوق العرس، فإن الدوق أوف مارلو لم يوجه أية دعوة إلى اصدقائه في لندن.

فهو دعا فقط جيرانه في الريف إذ كان يعلم أنهم في حالة اغفاله لهم، سيشعرون بالإهانة.

قال لليندا: «ان باكينغتون يريد أن يرحل مبكراً ولهذا لا يتوجب عليك الوقوف ساعات تصافحين جموع المهنئين الذين يحتشدون لا شيء إلا للانتقاد.»

ولم تسأل ليندا عن اسم المكان الذي سيذهبان إليه، ورأت ان المفروض انهما ذاهبان إلى منزل باكينغتون الذي يبعد خمسين ميلاً، فإذا كان ذلك هو المكان الذي سيذهبان إليه، فهما لن يصلا إلا بعد حلول الظلام، اما ماذا سيحدث بعد ذلك فهذا شيء لم تشأ التفكير فيه، ثم غيرت الموضوع بسرعة، كانت تعرف ان افضل ما تقوم به هو التحدث إلى أبيها عن خيوله، خصوصاً عن التدابير الجديدة التي يتخذها، وكان هو يثرثر فرحاً كصبي صغير، شارحاً كيف ستتوحد اسطبلاتهما معاً. اخبرها كيف سيأخذ جياده إلى اسطبلات باكينغتون في

نيوماركت، وكيف انهما كما يقول سيفوزان مستقبلاً في أي سباق يُقام للخيل.

في اليوم السابق لعرسها اختفت ليندا في الغابة، وكانت قد رفضت حتى فتح الصناديق التي وصلت من لندن في آخر لحظة. جلست على الحشائش قرب البحيرة، واخذت تحدّق في المياه الساكنة. شعرت وكأن عروس البحر قد تبرز في أية لحظة لكي تخبرها عما يحدث في الأعماق من تلك المياه. تمتمت يائسة، ربما لن يكون في امكاني العودة إلى هنا أبداً بعد الآن. وبينما كانت تفكر في ذلك، إذا بسرب من الحمائم البيضاء يرفرف فوق رأسها، وكانت هي نفسها تلك الحمائم التي طالما احبتها أمها، وكانت تحتفظ بها في أبراج الحمام في أعلى المنزل، وعندما كانت ليندا في دراستها في الخارج، لم يكن هناك من يعتني بها، فاصبحت برية، وها هي الآن ترفرف فوق رأسها، وبدا لها وكأنها تحمل إليها رسالة تعني الأمل والسعادة، وللحظة شعرت ليندا بقلبها يقفز تجاهها، فقد بدا لها تقريباً وكأن أمها تريد أن تخبرها بأن الأمور لن تكون بهذا السوء الذي تتوقعه، وأنها في النهاية، ستعثر على ما تبحث عنه.

قالت: ان ما أبحث عنه يا أمي، هو الحبّ وهذا شيء لن أجده.

كانت الحمائم قد اختفت، ولكن تأثير جمالها مازال هناك.

وبهرت عيناها اشعة الشمس المتسربة من بين اوراق الشجر. وللحظة واحدة فقط، تلاشت الظلمة وتألق الضوء،

وشعرت بأن كيانها باجمعه يستجيب له. عند ذلك حدثت نفسها بأنها اكثر تفاؤلاً مما يجب، وهكذا وقفت ثم اخذت تسير ببطء عائدة إلى القصر.

* * *

عندما بزغ الفجر، كانت ليندا ماتزال مستيقظة رغم محاولتها الاستسلام للنوم، ولم تكن تريد أن تواجه ما سيستقبلها به النهار، وقد جاء من يوقظها باكراً، فعلمت بأن هذه هي تعليمات أبيها.

كانت قد وجدت بعض الصعوبة في إقناعه بعدم دعوة أي من الأقرباء للمكوث في القصر.

«انني لا أريدهم ان يحضروا، وأنت تعلم، يا أبي، انهم إذا مكثوا معنا، فلن ينفكوا عن إلقاء الاسئلة مثل كيف تعرفت إلى الدوق، وابداء الأسف لزواجنا بهذه السرعة، مما لا يجعل في امكاننا الاحتفال بعرس فخم في لندن.»

واستغرق جعله يوافقها على ذلك، وقتاً طويلاً، فقد ادرك اخيراً ان الأسرة سيتملكها الفضول دون شك. ومن الطبيعي ان يكثروا من إلقاء اسئلة لن يتمكن من الإجابة عليها.

وعندما انضمت إليه في غرفة الافطار كان هو قد انتهى من تناول طعامه، فقال لها: «لقد تأخرت، والآن أسرعي فهناك الكثير يجب عمله. لقد اخبرني السائق بانك لم تشرفي على توزيع الأزهار في القاعة التي سيقام فيها حفل العرس.»

وكان السائق هو رئيس البستانيين، فأجابت ليندا: «انني واثقة من حسن قيام السائق بهذا العمل.»

فقال: «لقد اعتادت أمك دوماً أن تنسق الزهور بنفسها أثناء الاحتفالات. فالسائق كما نعلم نحن الاثنين، هو صالح في مسألة زراعة الخضار، ولكنه لا يعلم شيئاً عن الأزهار.»

وكانت لهجته تنبىء باللوم وهو يتابع قائلاً: «لقد وضعت ثقتي بك لإظهار القاعة بشكل جميل.»

فأجابت: «لا اظن ان الحاضرين سيلاحظون شكل تنسيق الزهور وتوزيعها، فهم سينشغلون بالنظر إلى الدوق، حاسبين في اذهانهم كم يملك من المال.»

فلم يجب أبوها، بل نهض عن المائدة قائلاً: «اظن ان علي ان اذهب لانظر في هذا الأمر، وأرجوك ان تكوني موجودة في الوقت المحدد، ان اكره الاشياء إلى الرجل، هو انتظار عروسه.»

فمنعت ليندا نفسها بكل صعوبة، من أن تجيبه قائلة بأنها واثقة تماماً من أن الدوق سيكون في غاية السرور لو أنها لا تحضر مطلقاً، ولكنها كانت تعلم أن هذا سيثير أباها لا اكثر.

أما السبب في اضطرابه هذا من ناحية العرس فكان لخوفه من أن يحدث في آخر لحظة ما يعطل الزواج هذا، وكانت اللايدي هيلبروف قد وصلت قبل الغداء مباشرة. وبعد ذلك صعدت إلى غرفة ليندا لتساعدها في ارتداء ثوب الزفاف.

كان الثوب بالغ الجمال، لقد كان أبيض بالطبع،

وكان قسمه الأعلى مطرزاً باللؤلؤ وحبيبات الماس.

قالت عمتها: «قد يبدو هذا اسرافاً بالنسبة إلى عرس بسيط كهذا العرس، ولكن بإمكانك ارتداؤه مرة أخرى حين تذهبين إلى قصر باكنغهام حيث يتم تقديمك إلى الملكة، وابنتي ماريغولد واثقة من انك ستثيرين غيرة كل الحاضرات.»

وكذلك احضرت اللايدي هيلبروف معها تاجاً من الماس لليندا، وهي تقول: «لا يوجد ما هو أثمن من مجوهرات باكينغتون. إنني اتذكر ان والدة باك كانت دوماً تكسف بمجوهراتها التي تتحلى بها بقية النبيلات وذلك في مناسبات افتتاح البرلمان.»

وتنهدت، ثم عادت تقول: «كما ان لديها عقوداً من اللآلىء ومجموعة من احجار الزمرد.»

كانت ليندا تحاول ألاّ تستمع، فقد كانت ترغم نفسها على الإحتفاظ بهدوء اعصابها وعدم اظهار مشاعرها. أخذت تفكر في الغابات والبحيرة الساكنة، هذا بينما كانت اللايدي تثرثر متابعة كلامها، اخذت تصف مجوهرات الدوقة اوف باكينغتون، والمناسبات التي كانت فيها هدفاً لغيرة الأخريات إذ أنها كانت تكسف حتى الأميرة الكسندرا الرائعة الجمال، وأخيراً، قالت: «أرجو ان اكون فكرت في كل ما ستكونين بحاجة إليه في شهر العسل، يا عزيزتي. انني لم أسأل خطيبك إلى أين سيأخذك، هل تعلمين انت ذلك؟»

فأجابت ليندا بغموض: «ليس لدي فكرة.»

فابتسمت اللايدي قائلة: «آه، انها مفاجأة إذن؟ ولكن

المفاجآت تكون عادة، إما مثيرة، وإما مخيبة للأمل.»

فلم تجب ليندا، فقد كانت تفكر في شيء واحد ستأخذه معها في شهر العسل.

لقد وضعته في الحقيبة بنفسها، فقد كان شيئاً على غاية من الأهمية، وبعد ان وضعت اللايدي هيلبروف اللمسات الأخيرة على النقاب الشفاف والتاج الماسي، وضعت حول عنق ليندا عقداً من الماس. ثم قالت: «كم تبدين جميلة، يا عزيزتي، والآن، ان عليّ أن أذهب، إن أباك في الانتظار ليرافقك إلى القاعة.»

ولم تتذكر ليندا انها لم تشكرها، إلا بعد أن ابتعدت هذه عن مجال السمع، سارت إلى النافذة تنظر منها إلى الحديقة، كانت مغرمة بهذا المنظر الذي تطل عليه نافذتها، والذي طالما اشتاقت إليه عندما كانت في فرنسا، وعندما تعود إلى القصر بعد الزواج، لا يبدو أن شيئاً سيبقى على ما هو عليه، وتساءلت بمرارة، لماذا؟ لماذا كان يجب ان يحدث هذا لي؟ لو انني ذهبت في نزهة على صهوة جوادي، بدلاً من الذهاب إلى الغابة، لما سقطت في الماء، ولما كان على الدوق أن ينقذني ولما توجب عليّ الزواج منه.

شعرت برغبة في هبوط السلالم والهرب من الباب الخلفي إلى الغابة، فلينتظروها في القاعة، وإذا لم تعد فسيرحل الدوق، وطبعاً، ستشعر هي بالارتياح التام، ولكن ليندا كانت تعلم أنه بعملها هذا، ستنهار كل الخطط التي بناها الدوق وأبوها، عند ذلك يغلق القصر، ويهاجم الدائنون أباها كالذئاب المفترسة.

اطلقت آهة عميقة، ثم تحولت عن النافذة، وعندما وصلت إلى قمة السلم رأت والدها في المكتب وقد بدا عليه السخط لتأخرها، وعندما نزلت إليه، قال: «هيا، أسرعي. لا استطيع ان افهم لماذا تتأخر النساء على الدوام.»

فقالت محتجة: «انها دقيقتان أو ثلاث فقط، يا أبي.»

فأجاب: «اريدك دوماً دقيقة في مواعيدك، وخصوصاً في مناسبة مثل هذه.»

ساعدها على صعود العربة التي كانت تنتظر في الخارج، ثم جلس بجانبها، وتحركت الجياد سائرة في ذلك الطريق القديم الذي تحيط به اشجار السنديان من الجانبين، وكانت قاعة القرية المخصصة لأفراح الزواج تقع في نهاية المرج، وقبل ان يصلا رأت ليندا حشوداً من اطفال القرية وآبائهم من الذين لم يستطيعوا حشر انفسهم في القاعة.

وعندما أخذ أبوها يساعدها على النزول من العربة، تقدمت النسوة هاتفات: «حظاً سعيداً، حظاً سعيداً، نتمنى لك كل السعادة.»

فابتسمت لهن ليندا من وراء نقابها، بينما كان أبوها يسرع بها نحو الباب، وحال وصولهما رأت ليندا أن كل المقاعد كانت مشغولة، الأمامية منها بأقربائها واصدقاء أبيها، أما ضيوف العريس فكانوا إلى الجانب الآخر من ممر القاعة، كل بقعة أخرى في القاعة كان يحتلها القرويون، وعمال الأراضي وأي شخص من القصر تمكن من الحضور، وكانت ليندا تعرفهم جميعاً منذ كانت طفلة. ومرة أخرى، شعرت بأنها تخدعهم، ذلك انهم كانوا يتوقعون منها أن تقدم

على زواج سعيد، وكانوا يشعرون بالفخر لزواجها من دوق، ولم تكن لديهم فكرة عن أن كل هذا لم يكن سوى مهزلة، لا لشيء إلا لأنها كانت من الحماقة بحيث سقطت في الماء.

ووصلت ممسكة بذراع أبيها، إلى صدر القاعة، وذلك في خلال ثوانٍ قليلة، وكان الدوق أوف باكينغتون واقفاً مع أحد أصدقائه، وأحنت ليندا رأسها، إذ انها لم ترغب في النظر إليه.

وكانت مراسم الحفل قصيرة، وفجأة، انتبهت ليندا إلى أنها كانت تقول لطفولتها، وداعاً.

وعندما وقعت أوراق الزواج الرسمية، أزاحت اللايدي هيلبروف عن وجه ليندا النقاب، وعندما ابتدأ عزف لحن الزفاف قدم العريس ذراعه إلى ليندا.

واحست بشعور مرهف عندما ألبسها خاتم الزواج الذي زين اصبح يدها اليسرى، وحدثت نفسها قائلة أنا متزوجة. لم اعد أنا ذاتي، وفي المستقبل ساحمل اسمه، انني زوجته، وفكرت في ان خروجهما بسرعة من القاعة، قد يكون لأن تفكيره شابه تفكيرها. وعندما اصبحا في فناء القاعة، احتشد القرويون حولهما، واخذ الأولاد ينثرون الزهور عليهما، وكانت هناك عربة مكشوفة في انتظار نقل العروسين إلى القصر، وركض فتيان القرية بجانب العربة معظم الطريق، ومنح هذا الفرصة لليندا للنظر إليهم بدلاً من النظر إلى عريسها الجالس بقربها، وفكرت رغم انها لم تنظر إليه، بأنه يشعر بالملل، وأنه دون شك، يشعر بازدراء نحو جهود الأولاد في أن يجعلوا من زواجهما مناسبة.

عندما وصلا إلى القصر، ناولت ليندا رئيس الخدم باقة الأزهار التي تحملها.

ثم سارت إلى قاعة أخرى لاستقبال المهنئين، كانت هناك منضدة قامت عليها كعكة عرس بثلاث طبقات صنعتها طاهيتهم السيدة بيل، وكانت قمتها مزينة بباقة من زنابق الوادي قد تفتحت براعمها للتو، وبدت الزهور نوعاً ما، غير ملائمة، فقد كانت الطاهية اصرت على ان تضع شيئاً ما، على قمة الكعكة هذه.

وتساءلت ليندا عما إذا كان الدوق سيلاحظ هذا، ولكنها عادت ففكرت في ان هذا الأمر اتفه من أن يتنازل فيهتم به.

وتصورت مبلغ الإحراج الذي لا بد أن أباها يشعر به بالنسبة إلى قاعة الاحتفالات هذه التي لم تستعمل منذ سنوات وتبدو بحاجة ماسة إلى الاصلاح.

ولم يكن أمامها سوى الرجاء بأن تخفي الأزهار التي توزعت في أنحاء القاعة بكثرة، بعض ما فيها من عيوب، وكان قد أقيم للعروسين خيمة من الزهور ليقفا فيها وليتلقيا التهاني في أول القاعة، ولهذا، كانت ليندا تشك في أن الضيوف سيلاحظون أي شيء عداهما.

كان هذا صحيحاً تماماً، فهم لم يعلموا بالقصة الحقيقية الكامنة وراء هذا الزواج، فقد كان اكثر الضيوف يرونهما اجمل زوجين خرجا من كتاب مصور، ذلك ان الدوق كان بدون شك اكثر رجال لندن وسامة، كما كان من غير الممكن ان يتصور المرء عروساً له أروع جمالاً من ليندا.

وكانت النسوة الحاضرات لا يحولن اعينهن عن ثوبها الذي لا بد انه جيء به من لندن.

كان التاج الذي ألبستها اياه اللايدي هيلبروف يتألق في أشعة الشمس المسترسلة من النوافذ المستطيلة، وبدا وكأن سيل الناس القادمين لن ينتهي، وبعد ساعة من وقوفهما، لاحظت ليندا أن عدداً من اصدقاء العريس، وكذلك من اصدقاء والدها الذين لم يكونوا مدعوين، انهم موجودون فعلاً، وكانت واثقة تماماً من أن الفضول هو الذي دفعهم للقدوم وليس مجرد تقديم التهاني والتمنيات الطيبة، فقد كان الموجودون اكثر عدداً مما كان متوقعاً، ولكن الدوق أوف باكينغتون مالبث ان اخرج ساعته الذهبية من جيبه قائلاً: «أظن انه قد حان وقت ذهابنا.»

فقالت: «ساذهب واغير ثيابي.»

فقال: «سانتظرك في الخارج في غضون عشر دقائق بالضبط.» وشدد على كلمة بالضبط.

فأسرعت ليندا مطيعة، صاعدة السلم إلى غرفتها، وكانت اللايدي هيلبروف قد اختارت لها طقماً رائع الجمال لترتديه في السفر، وكان من الحرير الأبيض الداكن.

قالت لها الخادمات اللاتي كن يساعدنها في تغيير ثيابها: «كم تبدين جميلة، يا سيدتي.» ووافقتهن عمتها على ذلك، قائلة: «لقد بدوت عروساً رائعة، ياليندا، وأنا جداً فخورة بك.»

فأجابت ليندا: «اشكرك لكل ما قمت به لأجلي.»

وسارت معها عمتها من غرفتها إلى قمة السلم، وهي

تهمس لها قائلة: «حاولي أن تبدي السعادة على وجهك، يا عزيزتي، وتذكري ان كل النساء يحسدنك الآن، إذا كان في هذا ما يبعث السلوان إلى نفسك.»

فهبطت ليندا السلم ببطء. وكان أبوها ينتظرها في الردهة، ومن خلال الباب الذي خلفه، رأت الدوق أوف باكينغتون جالساً في عربة تجرها أربعة جياد، ودون إرادة منها، شعرت بأنها إذا كان عليها أن تسافر معه، فهذه هي الطريقة التي ترغب فيها، ثم قبلها أبوها، وتمنى لها الضيوف حظاً سعيداً، كما نثر عليها بعض الواقفين على الدرجات الأرز والأزهار، وعندما استقرت في العربة، رفع الدوق قبعته بأدب، ثم انطلقت بهما العربة. كانت الجياد، كما يبدو، فتية وبحاجة إلى سيطرة قوية. سارا عدة أميال دون ان ينطق احدهما بكلمة، ثم وكأن الدوق فكر في انه ينبغي عليه أن يقول شيئاً قال: «أرجو ان تكوني مرتاحة.»

فأجابت: «جداً. اشكرك كما انني معجبة بجيادك. هل اقتنيتها حديثاً؟»

فأجاب: «انها عندي منذ حوالي عام، ولكنها ما زالت بحاجة إلى الانضباط نوعاً ما، حيث لم تسنح لي الفرصة لمداومة قيادتها حسبما أحب.»

قال الدوق بعد فترة: «لا اظنك قدت من قبل أربعة جياد في نفس الوقت.»

بدا في لهجته شيء من الترفع ضايقها، ولذلك اجابت بحدة: «في الحقيقة لقد حدث ذلك. فقد كان لدى أبي مجموعة ممتازة كنت اقودها عندما كنت في السادسة

عشرة. كما ان اصدقائي الذين اقمت معهم في فرنسا سمحوا لي بقيادة جياد لهم حائزة على جوائز وكان هذا لطفاً كبيراً منهم.»

فتمتم قائلاً: «انني مندهش حقاً.»

وشعرت نحوه بالكراهية.

فقد كان يعني بذلك أنه كان يظنها اكثر غباء وعدم خبرة من ان تتمكن من قيادة الجياد بالطريقة التي يقوم هو بها، واستمرا في السير حوالي الثلاث ساعات قبل أن يتوقفا.

لم يكونا في منزل باكينغتون كما توقعت ليندا، وإنما في منزل صغير جميل محاط بحديقة رائعة الجمال، دخلا بالعربة من خلال عدة بوابات، لتسأله ليندا بعد طول سكوت: «هل سنمكث هنا؟ لمن هذا البيت؟»

فأجاب: «إنه لي، وهو في منتصف الطريق بالضبط إلى الميناء حيث احتفظ بيختي الخاص.»

فسألته: «هل نحن ذاهبان إلى يختك؟»

فأجاب: «نعم.»

ولم يكن هناك وقت يكفي لمزيد من الاسئلة، لأنه أوقف العربة الآن عند الباب الأمامي، وأسرع اثنان من الخدم بفرش سجادة حمراء على الدرجات، بينما كان رئيس خدم عجوز ينتظر على عتبة الباب المفتوح.

وأخذت ليندا تصعد إلى الطابق الأعلى حيث كانت مدبرة المنزل في انتظارها.

قالت لها: «مرحباً بسيادتك. انني اقدم اليك وإلى سيادته تهنئتي وتهاني جميع الموظفين وتمنياتنا الطيبة.»

فقالت ليندا بشيء من الخجل: «شكراً.»

واخذتها المرأة إلى غرفة رائعة الجمال يحتلها سرير ضخم يعود طرازه إلى عهد الملكة آن، وعندما أجالت النظر حولها، رأت أن الذوق الرائع مسبغ على كل شيء فيها، منضدة الزينة، الخزانة، والمرايا... كلها كانت من طراز عهد الملكة آن.

شعرت وهي تنزل السلالم بعدما ارتدت ثوب سهرة، بأن أباها يعجبه كل هذا الترف الذي يمكن شراؤه بالمال، اكثر مما يعجبها هي. وفي نفس الوقت لم تستطع منع نفسها من الاعجاب وهي ترى كل شيء تقع عليها نظراتها انه من طراز عهد الملكة آن، حتى اللوحات كان يبدو أنها رسمت بريشة فنانين من ذلك العهد، وكان الدوق في انتظارها في غرفة جلوس رائعة، ومع أنها لم تحب التفكير بهذا الشكل، الا انها رأته رائع الأناقة، فقد كانت ملابس السهرة تلائمه تماماً، مما جعله يبدو اكثر تأثيراً في النفس عما كان عليه في القاعة، وتبادلا بعض الجمل غير المترابطة قبل ان يدخلا إلى غرفة الطعام حيث كانت المائدة مزينة بزهور الأوركيد.

واعترفت ليندا لنفسها بأنه لا يمكن لأحد أبداً ان ينتقد جودة طعام العشاء، وكانت تظن أنه لن يكون بإمكانها، لما يتملكها من انفعال وتوّجس، أن تأكل، ولكنها كانت في الحقيقة جائعة.

ذلك أن اكتئابها الليلة الماضية، وكذلك قلقها هذا الصباح، قد صدّا نفسها عن أي طعام، وهكذا استمتعت بأنواع الطعام المتعددة التي اخذ يقدمها رئيس الخدم

وخادمان آخران، وحيث انهما لم يستطيعا الجلوس صامتين، فقد سألته ليندا عن جياده، فأخبرها عن الخطة التي وضعها مع أبيها، وكذلك اهتمامه بتحسين سلالة جياده، والتي سبق وفازت في عدد من سباق الخيل التقليدية.

وحيث ان ليندا كانت سمعت مثل هذا الحديث مرات عديدة من أبيها واصدقائه، فقد أدلت بتعليقات ذكية بهذا الشأن، وبدا لها أن الدوق قد تملكته الدهشة لمعلوماتها هذه عن سلالات الخيل، كما أنه رفع حاجبيه عندما اخذا يتحدثان عن جياد يملكها بعض اعضاء نادي الفروسية.

وعندما انتهى العشاء، قال لها: «امامنا غداً رحلة طويلة، كلما اسرعنا بالذهاب إلى النوم، كان ذلك افضل.»

وأثناء الحديث كانا قد وصلا إلى الردهة، فقالت ليندا: «انها فكرة منطقية تماماً.»

وصعدت السلم دون أن تنظر خلفها لترى ان كان يتبعها أم لا، ثم دخلت إلى غرفتها، وكانت الخادمة في انتظارها لتساعدها في خلع ثيابها ولكن ليندا قالت لها: «اشكرك ولكن بإمكاني القيام بذلك بنفسي، كما ان عليّ ان اقوم بعدة اشياء قبل النوم.»

فبدت الدهشة على الخادمة، ولكنها سارت نحو الباب ثم قالت قبل أن تخرج: «تصبحين على خير يا سيادة الدوقة واتمنى لك كل السعادة.»

ولم تجب ليندا، بل سارت نحو الحقيبة التي كانت قد

طلبت من الخادمة عدم مسها، ثم فتحتها، أخرجت منها شيئاً ما، ثم جلست على كرسي بذراعين قرب المدفأة.

* * *

كان الدوق مرهقاً للغاية، فقد تأخر في الذهاب إلى سريره الليلة السابقة، إذ رغم احتجاجه، فقد اصر اصدقاؤه في النادي على إقامة حفلة عشاء لأجله، وكان من غير اللائق رفض ذلك، فقد كان يرى دوماً أن فكرة حفلة توديع العزوبية هي كلام فارغ.

وهكذا لم يأت إلى فراشه في الليلة الماضية إلا في الساعة الثانية والنصف صباحاً، وكان عليه ان يستيقظ مبكراً ليصل إلى القاعة في الوقت المفروض ان تتم فيه مراسيم الزواج، والآن، ساعده خادمه الخاص تمبكنز في خلع ثيابه، وعندما تركه خادمه أخيراً، حدث نفسه بأنه لا يشعر برغبة ليكون الآن مع عروسه، وعلى كل حال، فقد كان يعلم ان هذا ما تتوقعه هي أيضاً، ولم يجد أية فائدة من ابتداء الزواج بمزاج سيء، وحيث انه لم يكن ثمة باب بين الغرفتين، فقد سار في الممر إلى حيث قرع باب غرفة ليندا ثم فتحه. دهش حين وجد الغرفة يغمرها الضوء وذلك بدلاً من وجود شمعتين فقط على جانبي السرير كما كان يتوقع، وبنظرة سريعة إلى السرير، أدرك أنه كان فارغاً، ولكنه مالبث أن رأى ليندا، في الجهة المقابلة من الغرفة، جالسة على كرسي ذي ذراعين امام المدفأة، سار متجهاً إليها، سألها: «ألست في الفراش؟»

فأجابته: «أريد أن اتحدث إليك.»

قال بجفاء: «أظن ان الوقت متأخر لتبادل الأحاديث.»

وأثناء ذلك كان قد وصل إليها، ولكنه سرعان ما أدرك، وقد تملكته الدهشة، انها كانت تحمل بيدها مسدساً، فوقف لحظة يحدّق إليه، عند ذلك، قالت له: «هل لك بالجلوس وسماع ما سأقوله لك؟»

فتردد الدوق لحظة ثم جلس واسند ظهره إلى الخلف بكل راحة، ثم سألها: «لِمَ هذا كله؟»

فأجابت: «رأيت من الأصوب ان أوضح كل شيء منذ البداية، لقد وافقت على الزواج منك، كما اظنك تعلم، لكي انقذ أبي من اغلاق قصره، وامكنه من سداد ديونه.»

وسكتت لحظة، ثم تابعت تقول: «كما سبق واخبرتك من قبل، لم يكن لدي رغبة في الزواج منك، كما اعلم انك انت أيضاً لم تكن لديك رغبة في الزواج مني.»

فأجابها: «ومع ذلك، فها نحن متزوجان، ولهذا علينا ان نبذل ما في وسعنا لنجعله زواجاً ناجحاً رغم كل المصاعب.»

فقالت: «هذا ما كنت أنوي أن اقوله لك، إنني سأكون زوجتك امام الناس، وساتصرف، كما ارجو بنفس الخلق الذي تتوقعه من الدوقة أوف باكينغتون، وهذا كل شيء.»

وسادت فترة صمت.

ثم قال الدوق: «إنني افهم سبب قولك ذلك. ولكنني، في نفس الوقت، اظن ذلك شيئاً غير قابل للتنفيذ.»

فقالت بحزم: «إنها في رأيي، الطريقة الوحيدة لنا للعيش. ولكي أتأكد من انك لن تقترب مني، يجب ان تعلم انني رامية ماهرة جداً.»

وبشكل غير متوقع تماماً، انفجر الدوق ضاحكاً: «لا اصدق هذا، ويمكنني أن اطمئنك، ياليندا، أن ليس ثمة رجل في لندن يمكنه ان يصدق للحظة واحدة بأن فتاة صغيرة تشهر عليّ مسدسها، والسبب هو أنها ببساطة لا تجدني رجلاً جذاباً.»

فأجابت: «ليس ثمة ضرورة لأن يعلم اصدقاؤك في لندن بهذا. ولكنني احذرك بأنك إذا حاولت فلن يكون في امكانك تكرار ذلك. ومقابل هذا، اعدك بأن لا اجعل احداً يوجه أي انتقاد إلى سلوكي بصفتي زوجتك.»

فقال: «وماذا عني أنا؟ أليس لي خيار في هذا الأمر الذي يهمنا نحن الاثنين؟»

فأجابت: «كلا ابداً، ما عدا بالطبع أنني اتوقع منك أن يكون سلوكك نحوي بشكل لا يسمح للألسن الثرثارة بأن تتناولنا.»

وعندما كانت تتحدث شعرت بصعوبة ذلك، انهم سيتحدثون طبعاً عن الدوق، فهم سرعان ما يدركون ان زواجه فاشل، فقد كانوا يعلمون بسلوكه من قبل، ولا شك انهم سيشعرون بالأسى لزوجته المسكينة التي أهملها، ولم تكن قد أفصحت عن ذلك بصوت مرتفع، ولكنها شعرت بأن الدوق لديه فكرة عما تفكر فيه.

فقالت بصوت مرتفع: «لا يهمني ان اكون مثار عطف وشفقة من الآخرين مادام ذلك لا يسيء إلى أبي، أو يجعلني

أشعر بأنني مغفلة عندما نظهر معاً في النشاطات الاجتماعية.»

ولأول مرة، بدا الغضب على وجه الدوق: «انني اطمئنك، يا ليندا، إلى انني ساتصرف كسيد مهذب معك في المجتمعات كما هو متوقع من دوق أوف باكينغتون.»

وقف ثم قال: «والآن، وقد اتفقنا، أرجو ان تبعدي ذلك السلاح الخطر وتنامي بأمان. وكوني واثقة تماماً انه لن يزعجك احد.»

ونطق بالكلمات الأخيرة ساخراً وهو يسير نحو الباب، وعندما وصل إليه التفت إلى الخلف قائلاً: «تصبحين على خير، يا سيادة الدوقة.» ثم غادر الغرفة.

الفصل الخامس

نزلت ليندا لتناول طعام الإفطار لتجد أن الدوق قد سبق وتناول طعامه، ثم خرج إلى الاصطبلات.

تناولت فطورها بسرعة بعد أن عرفت بأن العربة في انتظارها عند الباب الأمامي.

وهذه المرة، كانت مجموعة الجياد مختلفة عن مجموعة أمس.

وعندما استقرا في العربة، قالت محاولة أن تبدأ حديثاً ملطفاً: «إنك لم تخبرني بعد إلى أين نحن ذاهبان.»

فأجابها: «إني أحتفظ بيختي في خليج هادىء يبعد عن هنا حوالي الثلاثين ميلاً.»

فهتفت: «يختك...!»

فلم يقل شيئاً. وبعد لحظة، عادت تقول: «سيسرّني جداً أن أبحر في يخت. لقد كان أبي يتحدث دوماً عن مقدار استمتاعه بالرحلات البحرية. وقد أخذني وأمي مرة إلى جبل طارق. ولكنني كنت في الثامنة من عمري فقط في ذلك الحين.»

فقال الدوق: «أظنك إذن، لا تصابين بدوار البحر.»

واستمرا في سيرهما صامتين.

وعادا للكلام مرة أخرى، عن الخيل، عندما توقفا لتناول الغداء في مطعم في طريقهم.

وكان الوقت عصراً عندما وصلا إلى ما كان الدوق قد قال عنه بحق إنه خليج هادىء.

ورأت ليندا أن هناك عددا من المراكب مطوية الأشرعة تتأرجح فوق المياه.

وكان اليخت أكبر كثيراً مما توقعت.

أدركت، دون أن يخبرها أحد، أنه مبني على أحدث طراز. وكان يبدو بالغ الجمال، وقد شعرت بالغبطة عندما صعدت إليه وحياها القبطان.

وعلى الفور تقريباً، أخذت ليندا إلى أسفل اليخت، حيث أدخلت إلى قمرة جميلة مزخرفة باللون الوردي.

فشعرت وكأنها تسير في عرش من الورود.

وأحضر اثنان من خدم اليخت أمتعتها.

ثم أقبل رجل صغير الحجم، إنما ذو قوة بادية، وهو يقول: «إنني تمبكنز يا سيادة الدوقة. وسأتولى العناية بك أثناء الرحلة.»

فمدت إليه ليندا يدها مصافحة وهي تقول باسمة: «أرجو ألاّ أكون مصدر إزعاج.»

أجاب تمبكنز: «هذا يعتمد على مبلغ رضائك عن الرحلة، يا سيدتي. فأحياناً تكون سهلة، وأحياناً صعبة.»

ضحكت ليندا، وقالت: «أظن رحلتنا ستكون مريحة جداً في هذا اليخت الكبير. هل امتلكه سيادة الدوق منذ وقت طويل؟»

فأجاب تمبكنز: «منذ حوالي السنتين، وهو يحبه كأنه ولده.»

ورأت ليندا أن هذا شيء مختلف بالنسبة إلى فكرتها عن الدوق وهي أنه مجرد مالك لجياد السباق.

وبينما كانا يتحدثان، كان تيمكنز يخرج حاجياتها من الحقائب وينظمها بمهارة فائقة.

وفكرت في أنها إذا كانت ستمضي مع الدوق شهر عسل، فمن الأفضل أن يكون ذلك في البحر.

ذلك أن أياً من منازله، مهما بلغ من الجمال، سيحد من حريتها مما ستشعر معه بالضيق والحصر.

وحيث أن الوقت كان متأخراً، لم تستطع تغيير ثيابها للعشاء. وهكذا غسلت يديها وسوّت شعرها، ثم خرجت إلى الصالون.

وكان هذا مزخرفاً بشكل رائع.

وعندما حضر الطعام، رأته لا يختلف في جودته عن الطعام الذي كانا تناولاه في منزله الليلة السابقة.

ولم يدر بينهما أثناء الطعام سوى القليل من الحديث وذلك أثناء وجود الخادمين في الغرفة.

وحالما انتهى العشاء، قال الدوق انه ذاهب إلى غرفة القيادة ليراقب إخراج اليخت من الميناء.

وقال: «سنرسو في أحد الخلجان الهادئة قبيل منتصف الليل. وأرجو أن تنامي مرتاحة.»

فأجابت: «أنا واثقة من ذلك.»

ونزلت إلى القمرة حيث غيرت ملابسها وأوت إلى الفراش.

كانت في غاية الإرهاق بعد الرحلة الطويلة أمس وكذلك لأنها لم تنم إلا قليلاً ليلة حفلة زفافها.

وهكذا استغرقت في النوم حالما مسّ رأسها الوسادة.

* * *

استيقظت ليندا، ومضت لحظة لم تستطع أن تدرك فيها أين هي. ثم، عندما شعرت بالأرض تتأرجح تحتها، تذكرت أنها في اليخت.

كانت قاصدة جهة غير معلومة.

ويشاركها في ذلك زوج لم تتحدث إليه سوى مرات قلائل منذ تعارفا لأول مرة.

ولم يكن لديها شك في أنهم كانوا في وسط البحر.

وتساءلت عما إذا كان الدوق ينتظر قدومها لتناول الإفطار في الصالون.

وفي هذه اللحظة، قرع الباب وسألها تيمكنز من خلال الباب: «هل استيقظت، سيادتك؟»

فأجابت: «لقد استيقظت لتوّي. وأنا أتساءل عما إذا كان عليّ أن انهض لتناول الإفطار.»

فقال: «سأحضره إليك.» ثم اختفى.

وكانت ليندا ما تزال تشعر بشيء من التعب.

وشعرت بالارتياح وهي تفكر في أن ليس عليها أن تقوم بعمل معينّ.

ولكنها، عندما نظرت إلى الساعة الموضوعة بجانب سريرها، تملكتها الحيرة وهي تراها تشير إلى الحادية عشرة تقريباً.

قالت تحدث نفسها وهي تتساءل عما إذا كانت الساعة مضبوطة، أتراني رقدت كل هذا الوقت حقاً؟

وعاد تمبكنز بصينية إفطار دسمة، ثم وضعها على منضدة متصلة بالسرير وهو يقول: «والآن، الأفضل أن تأكلي ما أحضرته إليك إذ ربما ينتابك، فيما بعد، دوار البحر.»

فأجابت باسمة: «إنني لا أشعر حالياً بغير الجوع. وقد أفزعني أن أرى مبلغ تأخر الوقت. أرجو ألاّ يكون الدوق قد انتظرني على مائدة الإفطار.»

فارتسمت على وجه تمبكنز ابتسامة عريضة: «إن سيادته يستيقظ في الصباح كما يستيقظ التلميذ في أول أيام عطلته. وإن أكثر ما يبهج سيادته هو البحر الهائج، والذي على وشك أن يواجهنا.»

وفي الواقع، كان البحر يزداد هياجاً كلما اقتربا من القنال الإنكليزي.

وكان اليخت يعلو ويهبط بشكل عنيف. ولكنها، على كل حال، لم تشعر بأثر لدوار البحر، ما جعلها تشعر بالارتياح. وعند العصر، شعرت بحاجة إلى شيء تقرأه.

وكانت قد انتبهت إلى خزانة كتب متصلة بجدار قمرتها، كبقية قطع الأثاث. وعندما نظرت إلى الكتب أدركت أنها النوع الذي توقعته في هذه القمرة.

كانت كلها روايات من ذلك النوع الذي رأت الفتيات تقرأنها في المدرسة. ولم تجد أياً منها ذات أهمية خاصة بالنسبة إليها، ولم تكن هي ما تعودت قراءته.

وانتظرت إلى أن أحضر تمبكنز إليها صينية الشاي ثم سألته: «هل يوجد كتب غير هذه الموجودة هنا؟»

فهتف تمبكنز: «كتب؟ إذا كان هذا ما تريدينه سيادتك، فهناك قمرة أمام هذه، مليئة منها.»

فهتفت بدورها: «قمرة مليئة بالكتب؟ هل يحب سيادته القراءة؟»

وما لبثت أن فكرت في أنها ما كان لها أن تلقي على الخدم سؤالاً كهذا.

وكان هو يقول وكأنه يراها غبية إذ لم تعلم بهذا: «إنه يقرأ، بالطبع. وعندما نذهب إلى مكان جديد، فهو يخرج الكتاب الذي يتحدث عن هذا المكان، وهكذا قبل أن يصل إلى ذلك المكان، يكون قد عرف كل شيء عنه.»

وعاد يبتسم وهو يتابع: «وهذا لا يعني، على كل حال، بأننا لا نصادف مفاجآت.»

فسألته: «ماذا تعني بذلك؟»

«كنت أفكر عندما كنا في التيبت...»

فهتفت ليندا فجأة: «التيبت؟»

فرفع تمبكنز يده إلى فمه بذعر: «ها أنذا مرة أخرى أقول شيئاً قيل لي ألاّ أكشف عنه. وأرجوك يا سيدتي أن تنسي هفوة لساني هذه.»

فسألته: «ولماذا يجب أن يكون سفر سيادة الدوق إلى التيبت سراً إذا كان قد ذهب حقاً إلى هناك؟»

كانت تتكلم وهي لا تكاد تصدق أن الدوق يذهب إلى مثل تلك الأماكن غير العادية.

عند ذلك انتبهت إلى أن تمبكنز يرمقها بنظرات غريبة.

وأخيراً قال: «الأفضل هو أن تنتظري إلى أن يخبرك

سيادته بما ينوي أن يقوم به، فهو لا يريد أن يعرف الآخرون بتحركاته.»

ولكن ليندا بقيت غير مصدقة.

فقد ظنت ان تمبكنز يمزح. ذلك أنها بين كل الأشياء التي كانت سمعتها عن الدوق، لم تسمع قط بأنه كان رحّالة.

فقد كان أبوها لا يتكلم عن غيره أثناء الأسبوعين الأخيرين.

لم تستطع مقاومة الفضول الذي تملكها. فتحت باب قمرتها بحذر. وكما كانت تتوقع، لم تجد أحداً في طريقها.

كما أنها لم تكن قد سمعت صوت الدوق طوال النهار. وكانت واثقة من أنه لا بد في برج القيادة يستمتع بمنظر البحر الهائج، كما سبق وقال تمبكنز.

ولكي تعبر الممر، كان عليها أن تحتفظ بتوازنها بكل حذر.

ثم فتحت باب القمرة التي تقابلها.

وملأها ما رأته عند دخولها، دهشة في البداية، ثم سروراً بعد ذلك. فقد بدا واضحاً أن هذه القمرة هي غرفة جلوس الدوق الخاصة.

كان هناك مكتب متصل بأحد الجدران، وأريكة، وكذلك كرسيان بذراعين.

أما ما سرّها فتلك الجدران الثلاثة المبطنة كلياً برفوف الكتب. ووقفت أمام أحد الرفوف تنظر بدهشة إلى الكتب التي كانت عليه.

لم تكن مطلقاً من نوع الكتب التي كانت تظنها تهم الدوق أوف باكينغتون. بعض الكتب كانت قديمة، وبعضها حديثة.

وأنبأتها عناوينها بأن أكثرها يتناول التاريخ، وإرشادات عن مختلف بلدان العالم.

والباقي كتب قديمة مشهورة طالما تمنت قراءتها ولكنها لم تكن في مكتبة المدرسة.

لا، ولا في مكتبة أبيها. ومدت يداها إلى ما فوق رأسها حيث لفت نظرها كتاب معين.

وإذا بصوت خلفها يقول: «أظنك ستجدين ذلك الكتاب مملاً نوعاً ما.»

فاستدارت ليندا فجأة كادت معه تفقد توازنها.

كان الدوق قد دخل القمرة، ولكنها لم تسمع صوت دخوله بسبب حركة السفينة.

وما أن تمسكت بحافة الأريكة لتمنع نفسها من السقوط، حتى قال الدوق: «أظن انه من الأفضل أن تجلسي.»

قال ذلك وهو يجلس على أحد الكرسيين.

جلست وقالت: «لقد... لقد جئت أفتش عن شيء أقرأه.»

فقد كانت تشعر بأن عليها أن تقدم بعض الإيضاحات.

فقال لها: «ولكن يوجد في قمرتك بعض الروايات الحديثة. وقد طلبت من سكرتيري أن يتأكد من وصولها إلى اليخت قبل وصولنا.»

فقالت: «لقد رأيتها. ولكن كتبك هنا تسرني أكثر.»

فابتسم الدوق: «ولكن، كما سبق وقلت لك، أظنك ستجدينها مملة نوعاً ما.»

فقالت: «كنت على وشك إنزال ذلك الكتاب الذي يتكلم عن التيبت.»

وعندما رأت العبوس على وجه الدوق، سارعت تقول: «آه، أرجوك، لا تغضب من تمبكنز لأنه جعلني أعلم، بغلطة منه، أنك كنت ذهبت إلى هناك. كم أنت محظوظ. فهو مكان طالما تشوّقت إلى زيارته.»

فقال الدوق بجفاء: «لا أظنك ستستمتعين بذلك كثيراً. فالسفر إلى هناك صعب للغاية والأماكن بأجمعها غير مريحة.»

فهتفت تقول: «ولكن لماذا زرتها أنت؟»

فلما لم يجب على الفور، أدركت بأنه يبحث عن تفسير يرضيها، ولكنه لن يكون الحقيقة قطعاً.

قالت بسرعة: «لم تكن لديّ فكرة عن أنك رحالة، إلى أن رأيت هذه الكتب وعلمت أنك لا بد سافرت إلى كثير من الأماكن الرائعة التي لم أستطع سوى القراءة عنها.»

فقال: «كنت أظن أن الفتيات الصغيرات لا يقرأن سوى الروايات. ولهذا السبب أخذت أتساءل عما يهمك بشكل خاص.»

فردت قائلة: «الفتيات الصغيرات يكبرن، ويصبحن تلك النسوة الرائعات الجمال اللاتي كنت تعرفهن.»

فنظر إليها الدوق بدهشة.

وعلمت بأنه يرى هذه الملاحظة غريبة من فتاة مثلها ومع هذا، فقد كان ما قالته صحيحاً.

وقالت ليندا: «بالضبط ولهذا، رغم اعجابك بهن وهن

زهرات فواحة، سرعان ما تنساهن عندما يدركهن الذبول.»

فأخذ الدوق يحملق فيها بذهول تام، ثم قال: «إنك تقرإين أفكاري. كيف يمكنك ذلك؟» فاحمرت وجنتاها خجلاً، ثم قالت بسرعة وهي تحوّل نظراتها عنه: «أظن... أظنني قلت هذا... دون تفكير.»

فأجاب: «لا أظن ان هذه هي الحقيقة. وسأسألك مرة أخرى، كيف امكنك قراءة افكاري.»

فأجابت: «إذا كنت تريد ان تعلم حقاً فسأخبرك.»

فأجاب بحزم: «طبعاً اريد ان أعلم.»

فقالت: «حسناً، عندما كنت في المدرسة خارج باريس، كان أحد أساتذتي، وهو عالم نابغة، قد قام بدراسة للمخ البشري.»

وألقت نظرة على الدوق لترى إن كان يستمع إليها، ثم تابعت تقول: «لقد تعمق بدراسته في الماضي السحيق إلى يوم أخذ مخ الرجل المتمدن، والذي كان أعلى قليلاً من مرتبة القرد، يتطوّر إلى حدّ اكتساب ذكاء الإغريق، وقراءة الأفكار عند الفراعنة القدماء والتي يعبرون عنها بـ العين الثالثة.»

وخطر لها وهي تتكلم، أن الدوق سيجد حديثها هذا مملاً، فقالت بسرعة: «إنني واثقة من أنك تجد حديثي هذا مملاً.»

فأجاب: «بالعكس، فأنا مستمتع به للغاية، وإذا لم تصدقيني، فستجدين كتاباً عن الفراعنة على ذلك الرف هناك وفيه الكثير عن العين الثالثة هذه.»

فقالت: «إذن فستفهم أن ذلك ما أحاول القيام به بنفسي.»

فحدق إليها الدوق لحظة، بينما تابعت هي تقول: «إني أفضل أن استعمل قوة الملاحظة، على أن أتقبّل انتقادات الآخرين، ومن هنا، أستطيع أن أعلم أحياناً بماذا يفكر الناس، حتى ولو لم يعبّروا عن أفكارهم بالكلمات.»

فقال الدوق: «ها إنك الآن تخيفينني. وأظن أنه لم يعجبني منك أن تعلمي ما يدور في ذهني، سواء أردتك أن تقومي بذلك أم لا.»

فضحكت قائلة: «إذن، فإن عليك أن تفكر دوماً بالأشياء الصائبة، وكن على حذر، كما يفعل الصينيون، من العالم الذي وراء هذا العالم والذي هو السبب في تهذيبهم الدائم.»

فضحك الدوق، ثم قال: «أرى هذا الحديث غريباً جداً ولم أكن لأتوقعه منك على الأخص.»

فأجابت: «وأنا أيضاً لم تكن لديّ فكرة عن أن مكتبتك تحتوي على هذا النوع من الكتب التي أحب قراءتها، وهكذا أملي الوحيد هو أن تستمر رحلتنا هذه وقتاً طويلاً.»

كانت تتكلم بشكل عفوي، بما تفكر فيه، ولم تتذكر إلا بعد فوات الأوان أن هذه الرحلة هي شهر عسل غير مرغوب فيه، مع رجل تكرهه ويكرهها.

وما لبثت أن أدركت أنها إذا كانت تقرأ أفكار الدوق، فهو يقرأ أفكارها في هذه اللحظة.

وغمز بعينيه وهو يقول: «ربما علينا أن نعود إلى نقطة البداية ونبدأ من جديد، فقد كنت أظنك فتاة صغيرة متعبة

غبية لاهم لها سوى الاهتمام لجمال وجهها. وأنا أعترف الآن بأنني كنت على خطأ كبير.»

فقالت: «قد تكون متسرعاً في قولك هذا، فإذا كنت قد سافرت حقاً إلى التيبت وغيرها من البلاد الغريبة فقد تجد أسئلتي الجاهلة متعبة جداً حيث أنني لم أسافر إلى هناك إلا بالخيال.»

فقال الدوق: «سنرى، ذلك أن لدي شعوراً بأنني قد لا أتمكن من الإجابة عن كل أسئلتك أو إخبارك بكل شيء تريدين معرفته.»

فأجابت: «سأكون شاكرة لو أنك أجبت على نصف أسئلتي، أو حتى على أقل من ذلك.»

عند ذلك أخذ الاثنان يضحكان.

وازداد البحر هياجاً عند المساء، ورفض تمبكنز أن يسمح للينذا بمغادرة غرفتها، فاحضر لها عشاء لذيذاً.

عند ذلك، فكرت في أنها تفضل لو كانت في الصالون لتتحدث إلى الدوق.

وعندما سألت تمبكنز عن مكان الدوق أجابها: «إن سيادته في برج القيادة سعيداً كولد يلعب بالرمال. والآن، يجب ألاّ تقلقي سيادتك، بشأنه. إبقي في غرفتك ولا تغادريها فتكسري أحد أعضائك.»

فامتثلت ليندا لنصيحته.

وفي نفس الوقت، لم تستطع أن تمنع نفسها من الاستماع إلى الدوق وهو يعود من غرفة القيادة متوجهاً إلى قمرته.

ولم تسنح لهم الفرصة هذه الليلة في الاحتماء في خليج ما وبدا، أحياناً، وكأن اليخت على وشك أن ينقلب.

وعندما استغرقت ليندا في النوم، حلمت بأنها تسبح نحو الشاطىء، ولكنها لم تجد مكاناً تنزل فيه، فقد دأبت أمواج قوية على إعادتها إلى جوفها فلم تستطع النجاة.

واستيقظت صارخة، لتجد أن الوقت صباح.

كانت الشمس تنساب من خلال منافذ اليخت، بينما البحر ما زال على هياجه.

وأبلغها تمبكنز بأن الدوق يصرّ على بقائها في قمرتها.

ولكن ليندا أرادت أن تتحداه لولا أنه أرسل، مع أوامره هذه، مجموعة من الكتب لم تستطع إلا أن تعترف بأن مواضيعها هي بالضبط ما ترغب فيها.

كان بينها كتابان رائعان عن التبيت.

أحدهما كان يصف بدقة تامة عادات البلاد. وعندما فرغت من قراءته، شعرت وكأنها كانت فعلاً هناك.

وحدثت نفسها قائلة: يا ليته يأخذني إلى هناك.

ولكنها كان تعلم أن هذا لن يحصل، وأنه لن يفكر في ذلك لحظة واحدة.

ومرّ اليوم الثاني بنفس الطريقة.

ثم لاحظت، بشعور من الارتياح، أن السفينة بعد ثلاثة أيام من الإبحار، ابتدأت تتحرك بثبات واتزان.

وبعد الإفطار، أخبرها تمبكنز أن بإمكانها الخروج من قمرتها بأمان.

فقالت: «بما أنني لم أصب بدوار البحر، فأنا أشعر بأن بقائي هنا، بينما هنالك شخص آخر يجول في اليخت، هو من باب الخداع والغش.»

فأجاب: «لا أريد أن تكوني معي بذراع أو ساق مكسورة،

يا سيدتي. ويكفيني سيادته الذي يذهب مغامراً ليعود إليّ جريحاً على غير توقع مني.»

فسألته: «يعود جريحاً؟ وكيف يحدث ذلك؟»

فأجاب: «ثمة مخاطر كثيرة حيث يذهب. وقد أخبرته عدة مرات بأنه من الأفضل أن يكون آمناً من أن يكون آسفاً، ولكنه لم يكن يستمع إليّ.»

فسكتت ليندا مفكرة، قبل أن تقول:

«ولكن لماذا تحيط به المخاطر؟»

فنظر تمبكنز إليها دهشاً، ثم أجاب: «لا أظن سيادته قد أخبرك عن كهف علاء الدين الذي لديه. وليس أنا الذي يثرثر بشيء يريد أن يبقيه سراً.»

فهتفت بدهشة: «كهف علاء الدين؟»

فأجاب: «هكذا أسميه أنا. ولكنه لا يريه لأيّ إنسان. وأعتقد أن على سيادتك أن تنتظري دورك.»

وغادر القمرة دون أن يقول شيئاً آخر، تاركاً إياها يتملكها الفضول.

ما الذي يجمعه الدوق؟ ولماذا؟

لقد أخبرها ابوها بأن قصر الدوق يحتوي على كل ما يرغب فيه. كان لديه أثاث لا يثمّن، ولوحات فنية، ومجموعات من كل شيء. وكان كل هذا قد أدخله كل دوق إلى الأسرة، وذلك على مدى السنين.

وحدثت ليندا نفسها: يجب أن أعرف سرّ هذا.

وعلى كل حال، كان لديها شعور بأن الدوق إذا لم يشأ أن يخبرها بشيء، فلا شيء يمكن أن يجعله يبوح لها بذلك السرّ.

وعادت تتمنى، بعد فوات الأوان، لو لم تتصرف بمثل ذلك العنف في يوم زواجها.

ذلك أنها كانت قد شعرت بالخوف منه، وذلك بسبب كراهيتها له.

فقد جعلها ما أخبرتها به أليس، مصممة على أن تحافظ على ما تسميه استقلالها.

ولكنها أدركت الآن أنه مختلف جدا عما كانت تتوقع.

وعندما صعدت إلى الصالون لتناول العشاء كانت البهجة تغمرها.

ووصل الدوق في الوقت الذي وصلت هي فيه تقريباً.

قال: «فكرت في أنك ستخرجين من قمرتك اليوم. فقد هدأ البحر كثيراً، وسنكون غداً في البحر المتوسط دون أن تزعجنا موجة واحدة.»

فأجابت: «لقد رغبت في الخروج منذ أربع وعشرين ساعة، ولكن تمبكنز منعني. فشعرت بأن عليَّ أن أطيعه.»

فقال الدوق: «إنه رجل صغير رائع، وأنا لا أدري كيف كنت سأدير شؤوني من دونه، إنه يقوم بكل شيء دون صعوبة، وإذا حدث شيء ما خطأ، فهو يبقى على هدوئه واتزانه. وهو كذلك يجاهر دوماً بما يعتقد به.»

فضحكت ليندا وهي تقول: «لقد رأيت هذا فعلاً.»

فقال: «هذا ما ظننته. وأنا واثق من أنه سيسرك أن تمبكنز يعجبه ذوقك في الثقافة. قال إنها المرة الأولى التي يرى فيها سيدة تقرأ شيئاً غير مجلة المرأة.»

فأجابت ليندا: «من الطبيعي ألاّ يكون لديهن سبب يدفعهن إلى القراءة ما دام بإمكانهن التحدث معك.»

وكانت تعني ما تقوله بكل إخلاص.

ولكنها أدركت وهي تتلفظ بهذه الكلمات، انها تبدو ساخرة بشكل ما.

فقال الدوق: «ولكنك كنت أحسن حال من دوني. والآن ما رأيك في الكتب التي أرسلتها إليك عن بلاد التيبت.»

فأجابت: «لقد شوقتني تلك الكتب أكثر من السابق لزيارة تلك البلاد. وربما سيمكنني اقناعك يوماً ما بأن تأخذني معك، ربما متخفية بشكل رجل.»

فضحك الدوق قائلاً: «أشك في جعل أحد يصدق ذلك. كما أن التيبتيين، بما يمتازون به من قوة الملاحظة، سيكتشفون بأنك تخدعينهم.»

فقالت: «هذا ما خطر لي. ولكن ليس من العدل ان تذهب انت إلى مثل تلك الاماكن الخلابة بينما أبقى أنا في البيت.»

«هل تظنين حقاً أنك ستكونين مسرورة بالرحلات على الأقدام إلى البلدان الصعبة، حيث أنت مهددة بإطلاق النار عليك دون سبب واضح؟»

فأجابت: «هذا ما يبدو لي رائعاً. ولكنني لا أفهم كيف أمكنك الذهاب إلى تلك الأماكن دون أن يعلم بذلك الناس الذين لا ينفكون عن التحدث عنك.»

فأجاب: «إذا كنت أنا قد خدعتهم، فهذا شيء يدعو للفخر. ولكن إذا كنت مهتمة حقاً بالذهاب، يمكنني أن أخبرك بأن هنالك أوقاتاً قصيرة في الحياة الاجتماعية يمكنك فيها

الغياب عن أعين الناس دون أن يلحظ ذلك أحد.» وابتسم قبل أن يتابع قائلاً: «أحدها في آخر تموز (يوليو)، ويبدو أن ليس هناك من يتساءل أين تكونين في شهر آب (اغسطس) أو أيلول (سبتمبر).»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «وأيضاً بعد العطلة السنوية، فقبل أن يبدأ موسم سباق الخيل بشكل جاد، يكون من السهل عليك الذهاب إلى تمبكتو والعودة منها دون أن يلاحظ أحد ذلك.»

فضحكت ليندا وهي تقول: «هذه مهارة بالغة منك. وأرجو أن تكون من الكياسة بحيث تقبل بأخذي معك.»

فقال بشكل متغطرس: «سأفكر في الأمر.»

ولكنها أدركت، على كل حال، بأنه كان يغيظها.

وكان الغداء قد انتهى، فقالت له: «إنني أعلم بأنني قد أغفلت سؤالك عن الجهة التي نحن قاصدان إليها.»

فأجاب: «إلى الجزر اليونانية.»

فهتفت مبتهجة: «الجزر اليونانية؟ ما أروع هذا. فهذا هو المكان الذي طالما تشوّقت للذهاب إليه أكثر من غيره.»

ثم عادت تسأله بصوت مختلف النبرة: «ولكن، لماذا؟ ما الذي يدعوك للذهاب إلى هناك؟»

ولما رأت تردده، أدركت أنه لن يخبرها بالحقيقة حالياً.

ولكنه، عندما تلاقت عيناها بعينيه، قال: «إذا كنت ستقرأين أفكاري مرة أخرى، فلا لزوم لأن أجيبك عن سؤالك.»

فجذبت ليندا نفساً عميقاً، ثم قالت: «إنك تفتش عن شيء خاص هناك. وهو شيء ترغب فيه كثيراً.»

ولما لم يجب الدوق، صرخت قائلة: «آه، أخبرني، أرجوك. ليس من اللائق أن تحتكر لنفسك الإثارة في التفتيش عن كنز دون أن تشركني في ذلك.»

فقال: «أظن أن تمبكتو قد تحدث إليك مرة أخرى. يبدو أنني لن أستطيع جعله يقفل فمه.»

فقالت: «إنه لم يخبرني بشيء ما عدا ما أسماه بكهف علاء الدين.»

فتنهد الدوق: «ليس ثمة شخص يبدو بطلاً في عيني خادمه، أليس هذا هو المثل الذي يقولونه؟»

فقهقهت ليندا ضاحكة، ثم قالت: «هنالك أعاجيب كثيرة، ولكنها ليست أعجب من الإنسان.»

لقد نطقت بشكل لا إرادي، بهذه الحكمة لسقراط، حكيم الإغريق، وذلك بلغته اليونانية.

قال: «هل تحسنين التكلم باللغة اليونانية؟»

فأجابت: «أتكلم باللغتين القديمة والحديثة منها. فقد كان عليّ أن اتعلمها مع اللغات الأخرى لكي أتمكن من فهم ما يقوله الاستاذ.»

فسألها غير مصدق: «أتقولين الحقيقة؟»

فضحكت ليندا وأخذت تكرر السطور الأخيرة من الشعر في اليونانية:

إنه يجوب البحار المظلمة.
مواجهاً أعاصير الشتاء.
مبحراً خلال الأمطار المنهمرة.

ثم قالت بالانكليزية: «أظن هذا الوصف يتحدث عنك. وعليك أن تزهو إذ ترى ما سبق وقاله سقراط منذ ألوف السنين، ينطبق عليك تماماً.»

فقال: «إذا كنت حقاً ذلك البطل الذي يستحق ما قلته، يجب أن أتوّج ما قلته من الشعر، بوصف صادق لك يشبه هذا، ولكن لسوء الحظ، رغم ما في هذا من إذلال، لا يحضرني شيء.»

فانفجر الاثنان ضاحكين.

الفصل السادس

سألته ليندا: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

وكانا قد سبق ومرا بعدة جزر صغيرة مثل «باروس» و«نكسوس»، فأخذت تتساءل عن السبب الذي يجعلهما يستمران في الذهاب شرقاً.

وتردد الدوق لحظة أدركت منها أنه يبحث عما يجيبها به وأخيراً قال: «إننا ذاهبان إلى كوس.»

فنظرت إليه بدهشة، وقالت: «ولكن تلك الجزيرة عائدة لتركيا؟ إنها قسم من الامبراطورية العثمانية.»

فقال: «حيث أنك مثقفة تماماً، لاشك أنك تعلمين أنها كانت أصلاً يونانية، كما أن سكانها يونانيون جميعاً.»

فأجابت: «أعرف ذلك.» كانا لا ينفكان عن الجدال والسجال فيما بينهما طوال رحلتهما هذه في البحر المتوسط.

وكانت ليندا حريصة على اظهار التفوق على الدوق لأنها كانت تعلم أن هذا يثير فضوله.

وسألته: «ولماذا الذهاب إلى جزيرة كوس؟»

وللمرة الثانية، ساورها شعور بأنه يخفي عنها شيئاً فأضافت قائلة ببطء: «أظنك تفتش عن شيء ما...عن شيء مخبأ، ولكنك تعتقد بأنك ستجده.»

فقال: «ها أنت تستعملين عينك الثالثة مرة أخرى، وهذا يشعرني بالضيق دوماً.»

فسألته: «ولكن كلامي صحيح، أليس كذلك؟»

فقال: «نعم، كلامك صحيح، وحيث أن بإمكانك، دون شك، قراءة أفكاري، فسأخبرك بأنني أفتش عن شيء ثمين جدا كان وجده أحد أصدقائي منذ حوالي أربع سنوات.»

فسألته: «وماهو؟»

فأجابها: «رأس نحت أفروديت.»

فهتفت ليندا بسرور: «وهل تظن أنك ستجده حقاً؟»

فأجاب: «إذا لم أجده فستكون خيبة أملي كبيرة.»

فقالت مشككة: «ولكن، هل أنت واثق...؟»

فتردد قليلاً، ثم قال: «معك حق، إن المسألة ليست سهلة، وعلينا أن نتوخى الحذر البالغ.»

فسألته: «هل قلت «علينا»؟»

فقال: «يبدو أنك مهتمة بهذا الأمر، ولهذا أظن من الأفضل أن أخبرك بالقصة كاملة.»

فقالت: «سيكون هذا أسهل كثيراً مما لو عرفتها بواسطة «عيني الثالثة.»

فضحك الدوق، ثم قال: «لقد ذهب صديق لي وهو عالم آثار شهير، إلى كوس منذ أربع سنوات، فوجد في وسط الجزيرة مكاناً تأكد من أنه سيدركه الحفر والتنقيب في النهاية، وسيكشف عند ذاك، عن أثر مهم.»

فأخذت ليندا تهمهم وقد تملكتها الإثارة، بينما تابع هو قائلاً: «وهو واثق من أنه يحتوي على نحت للطبيب العظيم أبو قراط.»

فسألته: «ألم يقوموا بالحفر عنه بعد؟»

فأجاب: «كلا ولكن صديقي وجد نحتاً مكسوراً لأفروديت فنقله ولكن من دون الرأس.»

فسألته بلهفة: «وهل سبق ورأيته؟»

فأجاب: «كلا لسوء الحظ، ولكن هذا ما أرجو أن أقوم به.»

«ومع ذلك تركه صديقك هناك؟»

«لقد منعوا صديقي من نقله. لم يمنعه اليونانيون وانما فتية من الرعاع الأتراك الذين يعتبرون كل ما يمكن أن يباع في الجزيرة يجب أن يكون ملكهم وليس لليونانيين الذين كانوا هم الذين صنعوه.»

فتنهدت ليندا، ولكنها لم تقاطعه، بينما تابع هو قائلا: «وعندما اضطر صديقي للهرب إلى السفينة التي كان مسافراً بها إلى جزيرة كوس، خبأ رأس أفروديت عند جذع إحدى أشجار الدلب التي كانت منتشرة في الجزيرة بكثرة.»

فسألته بقلق: «وماذا سنفعل لو لم نجده؟ هل طريقنا بعيد؟»

«كلا، فهو قريب جداً من البحر وقد غضب صديقي جداً لاضطراره لتركه في آخر لحظة. لقد غرزه بقوة عند جذور الشجرة، عالماً بأنه سيكون في أمان.»

«وهل هذا ما سنعثر عليه؟»

فقال: «نعم، إذا حالفنا الحظ.»

فهتفت: «آه، ياباك، ما أجمل هذا. أرجو من كل قلبي ان ننجح في العثور عليه.»

فقال ببطء: «أرى من الأفضل ألاّ تكوني معي فقد يكون

هناك خطر، والأتراك الذين طاردوا صديقي ربما ما زالوا يراقبون المكان.»

«وإذا وجدت رأس أفروديت، هل تنوي أعطاءه لصديقك؟»

فأجاب: «كلا، إني سأضعه في كهف علاء الدين الذي لدي وسيكون مع مجموعة من منحوتات عصره التي سبق وأحضرتها من دلفي والجزر الأخرى.»

فهتفت: «كم أنا متشوقة لرؤيتها، إني واثقة من أنها ستكون رائعة كما أتصورها تماماً.» وكانت تتكلم بلهجة حالمة جعل الدوق يفكر في أنه لم يسمع إمرأة قط من قبل تتكلم بمثل هذه اللهجة إلا إذا كانت تتحدث عنه هو.

لقد كانت الدهشة تتملكه في كل لحظة أمضاها مع ليندا في هذه الرحلة، أولا لمقدار اطلاعها وثقافتها، وثانياً مقدار معرفتها بالأماكن التي كان زارها، وخصوصاً اليونان.

لقد استمرت في حالة من اللهفة منذ علمت بأنهم ذاهبون إلى اليونان، وقد ذكره هذا بشعوره عندما اكتشف ما كان اعتبره أول كنوزه.

واقتربوا من كوس في نفس الوقت الذي غربت فيه الشمس خلف أخدود يسمى «المنشار» بالنظر إلى منظره الجانبي غير المستوي، وفي الأزمنه الغابرة كان يدعى «بريون».

وكان هذا هو الجزء الشرقي من ساحل الجزيرة، ثم استمروا متجهين ببطء نحو وسط الأرض المنخفضة،

وصلوا إلى العاصمة القديمة مواجهين الجزء الرئيسي منها، حيث كانت هناك قلعة بناها فرسان رودس.

تاقت ليندا إلى الذهاب إلى الشاطىء لترى المدينة نفسها.

على كل حال، فقد كان الدوق مصمماً على الإقتراب قدر الإمكان من حيث سيجدون رأس أفروديت.

وقف اليخت ملاصقاً للشاطىء حيث لم يجد صعوبة في الإرساء إذ كان البحر هادئاً.

كان وقوفهم بقرب مكان أطلق عليه إسم كزينوفون الذي كان سليل الملك أسكليبيوس.

وكان الامبراطور كلوديوس يحترم الطبيب الذي ولد في هذه الجزيرة.

ولكن الطبيب العظيم، على كل حال، ردّ الجميل لسيده بعد سنوات بأن سقاه السم.

وعندما أخذ الإمبراطور يتقيأ السم، تظاهر الطبيب كزينوفون بأنه يساعده، وذلك بإدخال ريشة في حلقومه، ولكن الريشة نفسها كانت مبللة بالسم هي أيضاً ما جعل الامبراطور يموت بعد آلام مبرحة.

وعندما أخذا يتكلمان عن ذلك، قالت ليندا: «هذا يريك كيف ينبغي أن تكون حذراً من الأطباء. إن أبي يرفض دوما أن يدع طبيباً يفحصه، وعندما كانت أمي مريضة، كان يسمح للأطباء بمعالجتها مرغماً.»

فقال الدوق: «إنني واثق من أنه على صواب. أنا شخصياً أفضل الإعتماد على تمبكنز وعسله ونباتاته بالنسبة إلى الجراح، وإذا كنت مريضاً فهو يتصرف تماماً كما كانت تتصرف مربيتي عندما كنت طفلاً.»

فضحك الإثنان وقالت ليندا: «أظن تمبكنز رجلاً ماهراً جداً فهو دوما يقول أشياء مسلية وعندما يساعدني، تراني دوما ضاحكة.»

فوافقها على رأيها بقوله: «الأمر نفسه بالنسبة لي، ثم إن مهارته بالطب النباتي تتفوق على أي علاج يصنعه طبيب.»

فقالت ليندا: «وطبعاً نحن لانريد أن يسممنا أحد.» وفجأة خطر ببالها أنها إذا تسممت وماتت في كوس، ربما سيسّر الدوق بالخلاص منها وإنه عند ذاك، سيسرع بالعودة ليمضي اكثر أوقاته كما في الماضي، وأخذت تفكر في اللايدي دالتون، وإذ بها تنتبه إلى أن الدوق كان يراقبها، فخافت أن يتمكن من قراءة افكارها هو أيضاً، كما كانت تستطيع قراءة أفكاره وخجلت لهذه الفكرة.

وكانت الشمس قد غربت تماماً وابتدأت النجوم تتألق في السماء كحبيبات الماس، عند ذلك أصرّ الدوق على أن ترتدي ليندا اكثر ملابسها دكنة في اللون، وتلبس حذاء مناسباً.

وقال لها: «إنني واثق من أنه سيكون علينا أن نسير فوق أرض وعرة، كما أن علينا أن نتسلق من الخليج صاعدين طريقاً شديد الإنحدار كما كان أخبرني صديقي.»

وأخذت البهجة تتملك ليندا لما سيقومان به، وغيرت ثيابها في دقائق معدودة، وأخفت شعرها بوضع شال قاتم اللون حول رأسها.

وعندما جاءت إلى الدوق، رأته مرتدياً قميصاً أسود وبنطلونا طويلا أسود هو الآخر.

فهتفت: «إنك تبدو أشبه بالقرصان.»

فأجاب: «ظننتك ستقولين أنني أشبه «أبولو» أو غيره من الأبطال.»

فقالت تذكره: «ولكن أبولو كان بطل النور عند الإغريق القدماء، بينما أنت غارق في السواد.»

جذف بهما بحاران في زورق من اليخت إلى الشاطىء وعندما سحبا الزورق إلى كهف رملي، قال للبحارين بصوت منخفض: «انتظرا هنا ولا تتحدثا كيلا نجلب انتباه أحد.»

فقال أحدهما: «سنبقى صامتين يا سيادة الدوق.»

سار الدوق وتبعته ليندا صاعدين الممر الوعر الذي يمتد من الشاطىء إلى قمة الحرف الصخري.

كانت ترى طريقها على ضوء القمر الذي يعتلي قبة السماء.

وعندما وصلا إلى القمة لم تكن هناك صعوبة في رؤية السهل الممتد أمامهما وهو الحقل الذي كان الدوق أخبرها بأنه مزروع بالبطيخ وغيره من ثمار الصيف التي كانوا يصدرونها من كوس إلى مصر وذلك بالقوارب الصغيرة المحلية.

كان كل شيء هادئا ما عدا نباح كلب آت من مسافة بعيدة وكان هناك عدد من أشجار الدلب، بعضها حديث الغرس.

ومشى الدوق بخطوات واثقة في اتجاه واحد وكأنه يعرف الطريق.

أدركت ليندا من الانتفاخ البسيط في جيبه بأنه قد أحضر

معه مسدسه. كما أنها هي أيضاً أحضرت مسدسها معها، ومرا بمزيد من أشجار الدلب، ثم انتقلا إلى قطعة أرض بالغة الوعورة، والتي ربما كانت تحتوي على أعمدة.

ثم إذا بليندا ترى فروعاً لشجرة دلب اكثر ضخامة. لقد تأكدت من أن هذه هي الشجرة التي كان ينشدها الدوق، ولكنها لم تلق أي سؤال.

كانت تعلم أنه كان خائفاً من أن يحمل الليل صوتيهما، وصلا الى الشجرة حيث وقف الدوق لحظة ينظر إلى فروعها.

وما لبث أن انحنى وأخذ يحفر عند جذورها بيديه.

وخطر لها أنه كان يجب أن يحضرا معولاً. لولا أنه قد يراهما أحد، فيعلم أنهما قادمان للبحث عن غنائم.

وكانت يدا الدوق قويتين للغاية.

أخذ يحفر ويحفر متعمقاً عند جذع الشجرة الى أن وقعتا أخيراً على شيء صلب.

ولما كانت أمطار الشتاء قد ضغطت التربة عند الجذع فقد أخذ منه رفع ذلك الذي بدا وكأنه حجر مكّور ضخم، أخذ منه مزيداً من الوقت. وعندما نجح في ذلك، هبطت ليندا بجانبه مطلقة صرخة ابتهاج مكتومة.

ذلك أن ما كان يخرجه من المخبأ، كان دون شك رأس أفروديت.

وأخذ الدوق يزيح التراب بيده. ورأت ليندا الآن، تحت ضوء القمر، أن ملامح الرأس كانت كاملة تقريباً.

والتلف الوحيد الذي كان فيه، هو عند اتصال العنق بالجسم والذي تهشم جانب منه عند انفصاله عنه.

همست تقول: «إنك وجدته. لقد وجدته.»

فقال: «بل (نحن) وجدناه.»

وأدركت أن شعوره بالبهجة يماثل شعورها، وانحنى يحمل رأس أفروديت، فإذا بهذه الحركة تنقذ حياته.

ذلك أن صوتاً انطلق في الفضاء، هو صوت إطلاق رصاصة.

ومرت الرصاصة فوقه دون أن تسبب له أي أذى لتستقر في جذع الشجرة.

وتبعتها رصاصة أخرى إستقرت هذه المرة في كتفه، عند ذلك استدارت ليندا لترى رجلين يركضان نحوهما وذلك من الناحية الشمالية للحقل.

وبدون تردد، سحبت مسدسها من جيبها وأطلقت النار على أحد الرجلين فأصابته في قلبه.

وأطلقت رصاصة ثانية فأصابت الرجل الآخر في عنقه.

وترنح الرجلان، ثم سقطا على الأرض، بينما استدارت هي بسرعة نحو الدوق، كان كتفه الأيسر مجروحاً وقد أمسكه بيده.

وقالت تستعجله: «علينا أن نبتعد عن هذا المكان. هل يمكنك أن تمشي؟»

فأجاب بلهجة غير ثابتة: «إنني... بخير.» ولكنها رأت أصابعه ملوّثة بالدم.

فأعادت مسدسها إلى جيبها، ثم حملت رأس المنحوتة وقالت وهي تبدأ بالسير في الطريق الذي أقبلا منه: «يجب أن نسرع.»

وتبعها الدوق، فلاحظت أنه يسير بثبات تام: ولكنه، في

نفس الوقت ما زال ممسكاً بكتفه دون أن يحاول مساعدتها في حمل الرأس.

ولم يكونا بعيدين عن المكان الذي أقبلا منه عند الشاطىء، ولكنه بدا لليندا وكأنه استغرق ساعات، وانتبهت إلى أنهما لم يسيرا إلا قليلاً، قبل أن تبدأ خطوات الدوق بالتعثر، ووقفت لحظة لتقول له: «ضع يدك على كتفي.»

فامتثل لقولها إذ كان أضعف من أن يجادل، واستطاعت السير جاهدة بالرغم من حملها الثقيل وهي ترجو من كل قلبها ألاّ يكون أحد قد سمع صوت اطلاق الرصاص، وأن يصلا إلى الشاطىء بأمان.

لقد كانت تعلم أنه إذا حدث وسمع أحد صوت الرصاص، فسيأتي رجال آخرون ليروا ما حدث، وأخيراً، أشرفا على حيث كان القارب في انتظارهما عند الشاطىء.

ولكن، ما أن رأت البحارين في الأسفل حتى كان الدوق ينهار فجأة ويسقط ببطء على الأرض.

وصرخت ليندا، فركض البحاران صاعدين إليهما حيث كانا في وسط الطريق المنحدر، وحملا الدوق ثم سارا به بحذر إلى الشاطىء.

وقبل أن تتبعهما ليندا، نظرت خلفها، ولكنها لم تشاهد سوى الأشجار.

كانت واثقة من أن الرجلين اللذين أطلقت عليهما النار كانا ميتين، أو مازالا ممددين حيثما سقطا، وداخلهاالخوف، فأسرعت، وهي تحمل رأس أفروديت، خلف البحارين اللذين كانا يحملان الدوق نحو الخليج،

وأصعدا الدوق إلى اليخت ببعض الصعوبة حيث كان غائباً عن الوعي.

وظهر تمبكنز، وساعدهما على نقله، بينما أخذت ليندا تراقبهما وهما يدخلونه إلى قمرته.

عند ذلك، إنتبهت إلى أنها ما زالت تحمل رأس أفروديت. استدار تمبكنز إليها قائلاً، بينما كان يتبع البحارين إلى قمرة الدوق: «سأضع سيادته في فراشه، ثم أعود لأطمئنك إلى حالته.»

فسألته: «ألا يمكنني مساعدتكم في شيء؟»

فأجاب: «ليس في الوقت الحاضر.» وأدركت من الطريقة التي كان يتحدث بها الرجل الصغير هذا، أن عليها أن تترك كل شيء بين يديه.

وتذكرت قول الدوق عنه بأنه أفضل من أي طبيب وفي نفس الوقت، داخلها الخوف فجأة من ان يموت الدوق بسبب جرحه هذا.

ولكنها ما لبثت أن فكرت بتعقل في أنه لو كان قد أصابه أي شيء أسوأ من جرح سطحي، لما كان استطاع السير كل تلك الطريق.

ووضعت في زاوية قمرتها رأس أفروديت الذي سبب لهما كل هذه المتاعب، ثم جلست على كرسي وقد منعها القلق من أن تأوي إلى الفراش، كانت متشوقة إلى الذهاب الى قمرة الدوق لترى بنفسها ماذا يحدث.

وبعد ذلك بساعة تقريباً، جاء تمبكنز إلى قمرتها، وسألته قبل أن ينطق بكلمة: «هل هو بخير؟»

فأجاب: «إنه نائم، يا سيدتي.»

«و... وماذا عن جرحه؟»

فأجاب: «إنه جرح سطحي فقط. ولكنك تعلمين أن نزيف الجرح أفقد سيادته الكثير من دمه، وهذا ما سترتفع معه حرارته.»

وابتسم لليندا وهو يضيف قائلا: «إن سيادته قوي كالثور. وسيتعافى تماماً خلال بضعة أيام.»

فقالت بحزم: «سأساعدك في تمريضه، لقد سبق وقمت بتمريض أمي في مرضها وسأنفذ كل ما تطلبه مني بالضبط.»

وكانت تظن أن تمبكنز ربما سيرفض أن يسمح لها بالبقاء بجانب سرير سيده، ولهذا دهشت عندما قال: «إن هذا سيساعد كثيرا في شفائه، يا سيدتي.»

فنهضت واقفة وهي تقول: «أريد الآن أن أراه.»

فتح تمبكنز باب قمرة الدوق لتدخل ليندا، ولم تكن هذه قد دخلت قمرة الدوق من قبل، ولهذا تملكها الذهول والإعجاب وهي ترى مبلغ اتساعها وجمالها، وفي وسطها كان يوجد سرير بالغ الإتساع هو أيضاً، وعندما اقتربت منه، رأت عيناه مغمضتان كما أن وجهه كان شاحبا مما جعله يبدو مثيرا للعطف وأشبه بغلام ناشىء منه برجل ناضج.

ورأت أن تمبكنز قد ضمد الجرح بكفاءة تامة، كما غسل الدم عن يده.

وقفت فترة تنظر إليه، ثم قالت: «إذا أنت سهرت بجانب سريره إلى الساعة الثالثة صباحاً، يا تمبكنز، فسأستلم أنا السهر منك بينما تذهب أنت لتنام، وليلة الغد سنقوم بنفس الشيء إنما بطريقة عكسية.»

فأجابها: «هذا من كرم أخلاقك، يا سيدتي، ثم أنك تعلمين أن عليك ألاّ تسمحي لسيادته بأن يكثر من التقلب من جانب لآخر بل امنحي الجرح فرصة للشفاء.»

فأومأت ليندا برأسها، بينما قال تمبكنز بهدوء: «أظنه سينام جيداً هذه الليلة، ولكنه غداً وبعد غد سيصبح متعباً لنا.»

فأجابت: «إنني واثقة من قدرتنا على مجابهة ذلك.»

وابتسمت للرجل الصغير، ثم عادت إلى قمرتها.

كان الرعب يغمر نفسها وهي تفكر في أنها قتلت رجلين، كما كانت مرهقة من حملها رأس أفروديت هذا إلى اتكاء الدوق على كتفها معظم الطريق، ولهذا عندما استلقت على فراشها، كانت تتوقع أن يمنعها القلق من النوم.

ولكنها بدلاً من ذلك استغرقت في نوم عميق، وكانت تحلم بالغابات في وطنها، عندما قرع تمبكنز الباب.

ولم ينتظر جوابها، بل فتحه وقال: «الساعة الثالثة الآن يا سيدتي. إن كل شيء على ما يرام، ولكن إذا تحرك، فهناك جرس بجانب سريره يرن في قمرتي، وسآتي أنا إليه حالاً.»

فقالت: «شكراً يا تمبكنز.»

وحالما ذهب، نهضت من سريرها ووضعت عليها معطفها المنزلي.

وتذكرت كم كانت تقوم بهذا العمل أثناء مرض والدتها، ولهذا أخذت معها دثاراً.

كان تمبكنز قد وضع مقابل سرير الدوق، كرسياً بذراعين جلست عليه ليندا واضعة الدثار على ركبتيها.

وعلى ضوء المصباح الخافت الذي تركه تمبكنز، أخذت تنظر إلى زوجها.

ورأت أنه ما زال يبدو غلاماً صغيراً، وخطر ببالها أن لا حاجة بها للخوف منه.

لقد أدركت أنها، منذ كانا على سطح اليخت، لم تعد تخاف منه كما كان الحال في البداية.

والآن، أتراها ما زالت تكرهه؟ وهل من الممكن أن تكره رجلاً مثله، نيّر العقل عميق الثقافة؟ رجلاً تجاوبت معه، كما تجاوب هو معها في التفكير؟ رجلاً يبدو أشبه بأبولو؟

وحدثت نفسها قائلة: «أحب أن أتحدث معه عن أشياء كهذه.»

كانت الساعة الثامنة عندما أقبل تمبكنز ليريح ليندا من سهرها.

فسألته بصوت منخفض: «هل نمت جيداً؟»

فأجاب: «أربع ساعات هي كل ما أحتاجه، يا سيدتي، وأرجو أن سلوك مريضنا كان جيداً.»

فأجابت: «إنه لم يتحرك.»

فقال: «إذن، إذا ذهبت ياسيدتي إلى قمرتك فسأحضر إليك إفطارك.»

فأطاعته وهي تفكر في أنها الآن كما لو كانت عادت إلى طور الحضانة.

وبعد وقت قصير، برز تمبكنز حاملا صينية إفطار دسمة.

وكانت أشعة الشمس تنساب إلى قمرتها من خلال الكوة

وفكرت في أن الدوق، لو كان معافى، لكان الآن على سطح اليخت.

وربما كان يقود اليخت الى جزيرة أخرى.

وما لبثت أن تذكرت القتيلين اللذين تركاهما خلفهما، عند ذلك، ارتدت ثيابها بسرعة وأسرعت إلى السطح تبحث عن القبطان.

قالت له: «أظن يا قبطان بينيت، أن الدوق لو كان صاحياً لطلب منك الرحيل في أسرع وقت ممكن.»

فأجاب القبطان: «لقد كنت أفكر لتوّي في أن هذا ما علينا أن نقوم به. لقد اخبرني تمبكنز أن حالة سيادته ليست سيئة تماماً، ولكنني أعلم أن عدة طلقات قد حدثت الليلة الماضية.»

فأومأت ليندا قائلة: «وهذا هو السبب في أن علينا أن نبتعد من هنا.»

فسألها: «هل هناك مكان معين تريدين سيادتك أن نذهب إليه؟»

فأجابت: «أظن جزيرة رودس مكاناً هادئاً، والبحر هناك رائقاً.»

فابتسم القبطان قائلا: «إنني أدرك بالضبط ما تريدينه سيادتك.»

فقالت متوسلة: «إذن، أرجوك أن تأخذنا إلى هناك بسرعة.»

وما أن وصلت عائدة إلى قمرتها، حتى سمعت صوت المحرك. لم تكن تصدق أنه كان عليها أن تقتل رجلين، ولكن لو لم تفعل ذلك، لكانا قتلا هما الإثنين، هي والدوق،

خصوصاً عندما يعلمان ما كانا اكتشفاه عند جذع شجرة الدلب.

وحدثت نفسها بأنهما محظوظان حقاً لنجاتهما تلك، وشعرت بأن ذلك نتيجة دعاء أمها لها.

فلو لم ينحنِ الدوق إلى الأمام لكانت أصابته الرصاصة الأولى في رأسه دون شك.

وصعدت فيما بعد إلى سطح اليخت لتتفرج على الجزر التي يمرون بها.

وقبل إرساء اليخت، رأت لمحة من الشاطىء التركي وكان هذا ما كانت قرأت عنه، وما حلمت برؤيته، ولكنها لم تكن تتوقع تحقيقه إلا في الكتب، وها هي الآن يحضرها الرجل الذي تكره، إلى الأرض التي حلمت بها.

وقالت تحدث نفسها بأنه مختلف جدا عما كانت تتوقع.

ولأول مرة، أخذت تتساءل عما إذا كان هو راضياً عنها الآن اكثر مما كان عندما علم بأن عليه أن يتزوجها، وفجأة، شعرت بالخجل من تصرفها ذاك ليلة زفافهما.

لقد عرفت الآن أن كل تصرفاتها المسرحية تلك لم تكن ضرورية. وقد أدركت أيضاً أنها لو كانت تحدثت إلى الدوق بهدوء من دون إشهار المسدس في وجهه، لكان قد تفهم الأمر تماماً.

وعادت تقول لنفسها: لقد كانت تلك حماقة بالغة مني وكان من الأفضل لو كنت تحدثت إليه قبل الزواج شارحة له مبلغ لهفتي على إنقاذ أبي.

وجعلها التفكير في الدوق تتلهف إلى رؤيته، وهكذا ذهبت إلى قمرته.

ولم يكن تمبكنز هناك، وكان المكان بالغ الهدوء، ولم يبد على الدوق أنه تحرك منذ تركته الساعة الرابعة هذا الصباح.

كانت عيناه ما زالتا مغمضتين كما أن وجهه كان شديد الشحوب ووقفت ليندا تنظر إليه فترة طويلة.

عند ذلك أدركت أنه، بالنسبة إليها، مهما كان حاله وحتماً ودون أي سؤال هو فعلا أبولو.

الفصل السابع

كانت ليندا نائمة عندما أقبل تمبكنز بصينية الإفطار وأدركت، عند ذاك، أن الساعة لا بد أنها العاشرة والنصف.

فقد كان يسمح لها دوماً بالتأخر في نومها بعد أن تكون قد سهرت بجانب الدوق.

جلست وهي تسأله بلهفة: «كيف حال سيادته هذا الصباح؟»

فأجاب: «لقد استيقظ لفترة قصيرة. وكان ذلك بعد أن غادرت سيادتك، ولكنه عاد فنام، وما زال للآن مستغرقاً في نوم هادىء.»

فصدرت عن ليندا آهة خفيفة.

لقد مضى يومان الآن منذ فقد الدوق وعيه بسبب الحرارة المرتفعة والتي لا تبدو أنها تنخفض.

كانت تريده أن يستيقظ لتتمكن من التحدث إليه.

فقال تمبكنز وكأنها كانت تحدثت بصوت مرتفع: «والآن، لا تقلقي. فقد أمضيت مع سيادته من الزمن ما جعلني أعرف أن هذا هو حاله على الدوام عند إصابته. وأنا مازلت أتذكر في أية حالة كان، عندما أصيب مرة بسهم مسموم.»

فهتفت ذاهلة: «سهم مسموم؟»

فأجاب: «كان ذلك في افريقيا، عندما حاول بعض رجال القبائل التخلص منا.»

وضحك بينما أخذ ينظم من مظهر القمرة. ثم عاد يتابع:

«لا تقلقي، إنه قريباً سينهض واقفاً على قدميه. كل ما أرجوه هو أن لا يتعجل العودة إلى لندن.»

فسألته: «اتظن ان هذا ما سيقوم به؟»

* * *

تنبّه الدوق فجأة من نومه، ليسمع شخصين يتحدثان بصوت خافت.

سمع صوت تمبكنز يقول: «لقد كان سيادته متضايقاً قليلاً. ولكنني تركت الثلج في إناء. ولا أظنك ستكونين بحاجة إليه. فقد أصبحت حرارته طبيعية تقريباً.»

فهتفت ليندا: «أصحيح هذا؟ آه يا تمبكنز. هذا رائع.»

«كنت أعلم أن هذا سيسرّك يا سيدتي. وكما سبق ان أخبرتك، فهو سيقف على قدميه صحيحاً معافى.»

فقالت: «أشكرك يا تمبكنز. إذهب الآن إلى فراشك ونم جيداً، وإذا تجاوزت الساعة الثالثة فلا تقلق، لأن بإمكاني أن أغفو قليلاً هنا إذا كان هو مرتاحاً.»

فقال تمبكنز: «بل سأكون مع سيادتك الساعة الثالثة بالضبط. فإن بإمكاني جعل رأسي كالمنبه، وهذا تعلمته على مدى السنين، فتريني أسمع صوتاً صاخباً ينبهني في الوقت المعيّن.»

وسمع الدوق ليندا تطلق ضحكة خافتة بينما كان باب القمرة يغلق.

وأدرك أنها كانت تقترب من سريره، إلى أن شعر بيدها على جبينه تتحسس حرارته، ثم تقول: «إنك أحسن. أحسن كثيراً، وأنا أريدك أن تسرع بالشفاء.

فهناك أشياء كثيرة عليك أن تراها، وكل اليونان في انتظارك.»

طريقة حديثها جعلت الدوق ينتبه إلى أنه كان يسمع هذا الصوت يخاطبه طوال الوقت الذي كانت غيبوبة الحمى الحارقة تتملكه.

وتملكته الدهشة وهو يسمع ليندا تقول: «لقد نظرت إلى الجزيرة اليوم، وأنا واثقة من أن هناك متحفاً في مكان ما فيها ولكنني بانتظارك لكي تأخذني فنرى ما يمكن أن نعثر عليه فيه.»

وسكتت لحظة، ثم عادت تقول: «إننا بعيدون تماماً الآن عن أولئك الأوغاد الذين كانوا سيقتلونك. كيف بلغت بك الحماقة إلى حد جعلك تظن أنهم لا يحرسون تلك الآثار القديمة التي كانوا يعرفون أنها مخبأة في مكان ما؟ لقد تخلصنا منهم الآن.

عندما تعود إلى انكلترا، يجب أن تجعلهم يدركون كم بإمكانك أن تعمل لأجلهم. أولئك الذين يعجبون بك لأنك رجل رياضي، ولأن جيادك متفوقة على جياد غيرك، سيستمتعون. إنك ستلهم الفتيان على اتباعك والعمل كما تعمل.»

وما لبث أن استغرق في النوم.

* * *

عندما أقبل تمبكنز في الصباح التالي بصينية إفطارها، كانت تنتظره بلهفة.

وكانت جالسة ومرتدية سترة فوق قميص وما أن دخل

تمبكنز إلى القمرة حتى قالت بسرعة: «ما الذي حدث؟ لقد سمعتك تتحدث إلى سيادته. نعم. لقد سمعتك تتحدث معه.»

فقال تمبكنز وهو يضع الصينية على المنضدة: «هذا صحيح يا سيدتي. لقد استيقظ سيادته الساعة السادسة وحرارته طبيعية. والآن يريد أن يخرج.»

فسألته: «ولكنك لن تدعه يخرج قبل أن يلتئم الجرح تماماً، أليس كذلك؟»

فأجاب وفي صوته نبرة رضى: «لقد قلت لسيادته ان ما شفاه هو عسلي ونباتاتي، ليس هناك الآن سوى أثر بسيط مكان إصابته، وهذا سيزول بعد مدة قصيرة.»

فهتفت: «إه يا تمبكنز، كم أنت ماهر. لقد كنت خائفة من أن يسبب له الجرح نوعاً من الإعاقة.»

فضحك تمبكنز: «مثل هذا الشيء البسيط لا يعوّق سيادته وأنا الآن أعاني من مشكلة إقناعه بالبقاء في فراشه. لقد قلت له: إذا أنت لم تهدأ مدة الأربع وعشرين ساعة التالية، فستعود مريضاً لمدة أسبوع وهذا لن يعجبك كثيراً.»

فقالت: «معك حق. فقد كانت أمي تقول دوماً ان من الخطأ الخروج من الفراش بسرعة، بعد أن تكون حرارة الجسم قد ارتفعت.»

فقال: «أتركي لي سيادته. إن بإمكاني أن أعالجه بالمنطق.» وغادر القمرة، وتمنت هي لو كانت معه لترى الدوق. ولكنها تعلم الآن بأنها، بما أنه الآن مستيقظ، فإن عليها أن تنتظر هذه الدعوة طوال النهار، ولكنها لم تأت قط.

وعلى كل حال، فقد بقي تمبكنز يعلمها بما يحدث: «لقد

أكل سيادته شيئاً من الطعام، وقد عاد الآن إلى النوم بعد أن قلت له ان أي شخص يفقد كثيراً من دمه، فعودة الجسم إلى طبيعته السابقة تستغرق وقتاً، ولكنه يعطيني الأوامر.»

فسألته ليندا بسرعة: «أية أوامر؟»

«لقد أرسل يطلب القبطان وأخبره بأن عليه الانتقال من هنا، ثم أخبره إلى أين يذهب.»

فعادت تسأله: «وما الذي عرفته أنت؟»

كانت لديها فكرة هي أن الدوق قد طلب من القبطان العودة إلى انكلترا.

ربما يرى أن شهر العسل قد طال، فهو يرغب في العودة إلى أصدقائه.

وفكرت في أنها لا بد أن ترى المزيد من اليونان ما دامت هنا... لا بد لها من ذلك.

وتساءلت عما إذا كان يمكنها النهوض الآن، ما دامت حالة الدوق قد تحسنت كثيراً، ثم تطلب من البحارة أخذها إلى الشاطىء في زورق.

ولكن شعوراً ساورها بأنها إذا ذهبت وحدها للاستكشاف فيبدو ذلك استغلالاً لمرضه.

وهكذا حدثت نفسها بأن عليها أن تنتظر الدوق.

ولكنها، في نفس الوقت، شعرت بخوف ملح عندما أخذت المحركات تعمل. أتراهم عائدون إلى انكلترا عن طريق البحر الأبيض المتوسط؟ وأخذت تتمنى أن تبقى مدة أطول وأن ترى هذه البلاد ما دامت هنا.

لقد كان هذا يعني لها كثيراً.

وهكذا، بدلاً من أن تذهب إلى الشاطىء، ذهبت إلى قمرة

الدوق الخاصة حيث أخذت بعض الكتب التي تتحدث عن بلاد اليونان.

ووجدت بينها كتاباً يتحدث عما كانت قد علمته مسبقاً فأثناء الخمسين عاماً، عندما أصبحت اليونان مركز الحضارة في العالم، كان أبولو وأثينا المرشدين لليونان.

لقد كانا أصغر وأحلى الملوك الذين حكموا البلاد فقد كانا يحبان الحياة والانطلاق بالفكر.

وحدثت ليندا نفسها أن هذين الأمرين لن يتمكن أحد من أن يمنعهما عنها، هي أيضاً. ولكنها، في نفس الوقت تريد أن تشترك بهما، مع الدوق، كما اشتركت أثينا مع أبولو.

عند ذلك فقط، أدركت أنها تحب الدوق.

وأنها أحبته منذ مدة طويلة، ولكنها كانت خائفة من مواجهة الحقيقة.

والآن، ربما كانا متوجهين إلى انكلترا وقد فات الأوان.

لقد كان كل كيانها يصرخ أنهما يجب أن يمكثا في اليونان لأن هذا يعني بالنسبة إليهما شيئاً كثيراً.

وطوال النهار، كانت فكرة أن الدوق بهذا القرب منها، والبعد في نفس الوقت، كانت هذه الفكرة تعذبها.

وسمعت صوت تمبكنز يغادر القمرة، فعلمت أن الدوق لا بد أنه نائم الآن.

وشعرت برغبة لم تشعر بمثلها قط في حياتها تجاه أي شيء آخر، وهي أن تدخل قمرته وتنظر إليه، ولكنها حدثت نفسها بأنه إذا استيقظ ورآها، فقد يزعجه ذلك.

وتساءلت عما قد يفكر فيه إذا كانت لديه فكرة عن أنها كانت قد جلست في قمرته في الليل وتحدثت إليه.

فقد كانت أمها تخبرها على الدوام أنه عندما يكون شخص ما غائباً عن الوعي، فهذا العمل يساعده على الشفاء.

كانت تقول لها: «تحدثي إليهم، وحاولي أن تصلي إلى قلوبهم فذلك أجدى من الوصول إلى عقولهم.»

وكان هذا ما قصدت القيام به.

بعد أن تناولت العشاء وحدها في الصالون، عادت إلى قمرتها.

عند ذلك قرع تمبكنز الباب، ثم قال: «إن سيادته مستغرق في النوم، فإذا وافقت سيادتك، فسأغفو قليلاً حتى الساعة الثالثة.»

فشعرت ليندا بقلبها يقفز من مكانه، فقالت له: «إنني سأسهر بجانبه بالطبع. فأنت يجب أن تحظى ببعض النوم.»

فابتسم تمبكنز لها: «إنني بأحسن حال. وكذلك سيادته، كعادته بعد كل حادث يحدث له.»

فقالت: «أرجو أن يكون هذا صحيحاً. تصبح على خير يا تمبكنز. وأتمنى لك نوعاً طيباً.»

فأجاب: «لا شك في هذا، يا سيدتي.»

وسمعته ليندا يسرع مجتازاً الممر.

وكانت قد سبق وارتدت معطفها المنزلي الجميل الأزرق، ولم تكن قد أوت إلى الفراش بعد.

ونظرت إلى المرآة لترى إن كان شعرها منظماً.

ولكنها ما لبثت أن ضحكت من نفسها لاهتمامها هذا بينما الدوق نائم ولن يراها.

وكانت قد انتبهت إلى أن المركب قد توقف كالعادة عند حلول الليل.

ولن يكون هناك ما يعكر عليه نومه.

رغم أن هذا لم يحدث أثناء الأيام الماضية.

وفي نفس الوقت، إذا كانا في طريقهما إلى انكلترا، فسينزعج إذا كان البحر هائجاً.

وتمنت ألاّ يكون مستعجلاً في الوصول إلى المكان الذي يقصده، أياً كان هذا المكان.

وتساءلت عما سيقوله الدوق لو أنها ترجوه أن يطيل مكوثه قليلاً في اليونان.

فقد كان يتملكها شعور مخيف بأن لا شيء ممكن أن يغيّر رأيه، فإذا هو أراد الذهاب فسيذهب رغم كل شيء. وفتحت باب قمرته بهدوء بالغ.

وكان تمبكنز قد ترك المصباح بجانب السرير وفكرت في أنه أزاح الستائر عن كوة القمرة بناء على طلب من الدوق نفسه.

وأمكنها بذلك أن ترى النجوم والهلال تتحرك ببطء في قبة السماء.

مشت نحو السرير حيث وقفت تنظر إلى الدوق. كانت عيناه مغمضتين كعادتهما كل ليلة.

ولكن الشحوب الذي كان يخيفها لم يعد هناك.

ولكنه بدا أكثر وسامة مما كان عليه في الليلة الماضية.

وانحنت إلى الأمام لتراه عن قرب، وعند ذلك، فتح عينيه.

فقالت متلعثمة: «هل... هل أنت مستيقظ؟»

فأجاب: «نعم يا ليندا. أنا مستيقظ. وأنا أشعر بتحسن فائق. شكراً لك ولتمبكنز.»

فقالت: «عليك أن تشكر تمبكنز في الواقع، فقد

قامت نباتاته الشافية بالأعاجيب بالنسبة إلى جرحك.»

فقال: «وعليَّ أيضاً أن أشكرك.»

فساد الصمت.

وبينما كانت ليندا تتساءل عما إذا كان الآن، بعد أن استيقظ، يريدها أن تغادر، قال لها: «إنني أريد أن أتحدث إليك، ولأن الموضوع في منتهى الأهمية، أرى أن ترتاحي على الأريكة كما فعلت في الليالي الماضية.»

فحملقت ليندا به: «وكيف عرفت... ذلك؟»

فسألها: «أليس هذا صحيحاً؟»

فصدرت عن ليندا شهقة قصيرة.

وحيث أنه كان يتكلم بلهجة جادة، تملكها فجأة شعور بالخوف.

ربما يريد أن يخبرها بانه وجد طريقة لإنهاء هذا الزواج. وهكذا يتحرران من هذا الرباط.

أو ربما هو يريدها أن تعيش في الخارج.

وربما لديه فكرة ذكية لفك رباطهما الزوجي هذا، لا يمكنها تصورها حالياً.

وعاد يغمض عينيه وكأنه ينتظر منها الامتثال لطلبه.

ولأن القيام بما طلبه منها كان أسهل عليها من الجدال، فقد جلست على الأريكة التي بجانب سريره.

مضت فترة لم يتكلم فيها الدوق ما جعلها تتساءل عما إذا كان قد عاد إلى النوم.

ولكنه ما لبث أن قال: «إني أعلم أنك كنت معي هنا في كل ليلة. ولا بد أن هذا كان مرهقاً لك تماماً.»

فقالت بسرعة: «كان يجب أن ينام تمبكنز أحياناً. كما أنني أردت أن أساعدك على الشفاء.»

فسألها: «لماذا؟»

فاجأها هذا السؤال حتى أنها لم تجد ما تجيبه به. وعندما لم تتكلم، عاد يقول: «لقد كنت كرهت الزواج مني. ولو لم تمنعي الأتراك من قتلي لكنت تخلصت مني.»

وسكت قليلاً ثم عاد يقول: «وطبعاً، دوقة ثرية ورائعة الجمال مثلك، سيكون العالم كله معجب بك حينذاك.»

فسألته غاضبة: «كيف يمكنك أن تتصور... لحظة واحدة، أنني كنت أريدك... أن تموت؟ ما هذا الكلام الشرير؟ إنني طبعاً... أريدك أن... تعيش.»

فقال برقة: «ولهذا السبب قتلت رجلين!»

فأجابت: «إني أحاول جاهدة... ألاّ أفكر في ذلك. ولكنك تعلم انني لو لم... أقتلهما، لكانا قتلانا... نحن الاثنين.»

فقال: «كنت أنا المقتول على أي حال، وأنا شاكر مساعدتك لي، يا ليندا، لكوني مازلت حياً.»

فقالت: «يجب أن... ننسى هذا الأمر. وعندما ترى رأس أفروديت، ستعلم أنه كان يستحق المجازفة.»

لم يتكلم، وتابعت هي قولها: «لقد نظفته، وهو جميل جداً. ولهذا أنا أعلم مقدار الفخر الذي ستشعر به وأنت تضعه في... كهف علاء الدين.»

فقال: «إذا كان لشخص أن يضعه هناك، باحتفال كبير، فهو أنت. فأنت لم تنقذي حياتي فقط، يا ليندا، ولكنك استطعت أن تحضري معك رأس أفروديت، ثم تسنديني إلى حين وصولنا إلى رجال الزورق.»

وابتسم قبل أن يضيف قائلاً: «إنك في الواقع فتاة غير عادية، ومختلفة تماماً عما كنت ظننتك عليه.»

فتمتمت: «وكذلك أنت... مختلف.»

فسألها: «هل أنت واثقة تماماً من ذلك؟»

فأجابت: «واثقة تماماً... تماماً من ذلك. وأنا آسفة لكل ظنوني السيئة تلك... عنك.»

ونطقت بتلك الكلمات بشيء من التردد.

وفجأة، استدار الدوق إليها، ورفع نفسه على مرفقه ليتمكن بذلك من النظر إليها. ثم سألها: «وما هو رأيك بي الآن؟»

ولأنه كان ينظر إليها وهو قريب منها، شعرت ليندا بخجل مفاجيء جعلها لا تستطيع النظر إليه. وصعد الدم إلى وجنتيها.

بقي الدوق لحظة طويلة دون حراك، قال بعدها: «الليلة الماضية، يا ليندا، شعرت بخوفك علي يا غاليتي.»

ولم تصدق ما يقوله.

وشعرت وكأن القمرة تدور حولها، وبنفسها تسبح بين النجوم والقمر.

وأخيراً، قال الدوق: «هيا، أخبريني ما هو ظنك بي الآن؟»

فهمست: «إني أحبك... أحبك.»

فقال بهدوء: «كما أحبك أنا. بل كما أحببتك منذ وقت طويل، ولكنني كنت أظنك ما زلت تكرهينني.»

فقالت: «كان ذلك خطأ شنيعاً مني، وحماقة بالغة. ولكنني لم أكن أعلم حقيقتك... والآن...»

فقال: «والآن أنت تحبينني. لشدّ ما أحبك. إنني أرغب بك كما لم أرغب في شيء آخر في حياتي.»

فسألته: «هل من الممكن... أن يكون هذا صحيحاً؟»

فسألها: «وهل تظنينني أكذب عليك؟ عندما نكون جزءاً من اليونان فهذا يعني لنا، نحن الاثنين، أكثر مما يعني لنا أي مكان آخر في العالم.»

فقالت: «هذا هو شعوري... أنا أيضاً. ولكنني... كنت خائفة جداً من أننا... عندما شرع اليخت في السير اليوم، أننا عائدون إلى انكلترا.»

فقال: «بل نحن ذاهبون إلى دلفي في اليونان، حيث سأريك المكان الذي أحب، وسيكون بإمكاني هناك، أن أخبرك بحقيقة شعوري نحوك، كما تخبرينني أنت بحقيقة شعورك نحوي.»

فقالت: «إنني أحبك...»

وكانت تتكلم همساً، ولكنه سمعها. فقال باسماً: «لقد اعتنيت بي أثناء مرضي، يا غاليتي، وهذا شيء ستداومين عليه بقية حياتنا.»

فسألته: «هل أنت... تريدني حقاً؟»

فقال: «أريدك معي في كل دقيقة من كل يوم وكل عام ما دمنا، نحن الاثنين، في هذه الحياة. وأكثر من هذا، يا أفروديت الصغيرة الرائعة الجمال، فأنا سأكون زوجاً شديد الغيرة.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «أريد أفكارك أن تنحصر بي، وهذا العقل الماهر الذي أدهشني يجب أن يكون ملكي.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «إني أحبك وأنا أعلم أن

هناك الكثير عن الحب سأعلمك إياه. ولكن يا زوجتي الحلوة الجميلة الغالية، أنا لا أريد أن أخيفك.»

فسألته: «وكيف يمكن أن أخاف من... أبولو؟ ولكنني لم أكن أعلم أن الحب... هو رائع بهذا الشكل.»

قال: «الروعة يا حبيبتي، اننا نحن الاثنان أحببنا بعضنا دون ان ندري، وسنبقى مع بعضنا دائماً.»

تمت